المضيفة

المضيفة

محمـود حـامــد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: المضيفة
اسم الكاتب: محمود حامد
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11437
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85718 – 9 – 9

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

"ربما لا نحصل على ما نريد. لكننا بالتأكيد سنحصل على ما نستحقه"

"دوج هورتون"

إهداء..

إلى تلك التجربة التي مررت بها يوماً وعلمتني الكثير.

(١)

تدفقت نسمات الصباح في الأزقة والعطفات حتى انتهت أخيرًا في وسط العاصمة. الجو اتسم بالهدوء في السويعات الصباحية، أو كما يقول خبراء الطقس "هدوء ما قبل العاصفة " هدوء ما قبل استيقاظ أهل المدينة.

منذ ساعة، وحين تنفس الصبح من بين ستائر ظلام الليل، استيقظ وهو يرمق بعينيه صديقه الجديد، تلك الصداقة التي لم تتعد الأسبوعين، لقد اتخذ من الفراغ الموجود في أعلى النافذة موطنًا له، صوت زقزقة العصفور أصبح يؤنس وحدته، ابتسم له بلطف ثم تحول للجهة الأخرى "الكمود" الصغير الذي يحمل صورة زوجته وأولاده، تحولت الابتسامة إلى كآبة وحزن، تسمرت عيناه للحظة قبل أن تذرف دمعة ساخنة سرعان ما وجدت طريقها على وجهه المنحوت.

رفع طرف عينيه إلى السماء وما لبث أن دعا لهم بالمغفرة والرحمة، أمسك طرف الغطاء براحة يده وأزاحه عن جسده الهزيل، تنحى عن السرير وأخذ الروب واتجه ناحية النافذة.. يمشي كسلحفاة، علامات تقدمه في العمر أصبحت لها الكلمة العليا في حياته البائسة، بات يراقبها كل صباح في

المرآة، اقترب من النافذة ذي الزجاج المزخرف، أزاحها للخارج فغادر صديقه العُش ليبحث عن رزقه، لحظات وعانقته نسمات الهواء فأخذ يتذكر زوجته وهى تحتضنه أمام النافذة، هو الآخر لم يستحِ وسرعان ما بادلها المشاعر الجياشة، وبكل سرور وفخر يفتح ذراعيه لها فتلقي بنفسها بين أحضانه، لقد اعتاد هذا منذ زمن بعيد، لكنه الآن يحتضن الوهم، فسرعان ما استفاق من غفلته على صوت ضجيج مرتفع أسفل العقار ليجد نفسه وحيدًا من جديد..

أنهى صلاته وارتدى معطفه الإنجليزي، تلك الهديةالتي قامت زوجته بشرائها في عيد زواجهما الأخير، استعد لممارسة المهام اليومية والتى أصبحت محفورة في عقله ولم تذهب طي النسيان مثل غيرها..

***

صباح كل إنسان في بقاع الأرض يختلف كثيراً عن صباح كهل أتى عليه الزمان بعد رحيل أحبته، فلا أنيس ولا جليس له سوى أنفاسه التي تخرج من حنجرة صوتها متحشرج..

في أثناء توجهه إلى القهوة، توقف لبضع دقائق أمام أحد أفران الخبز البلدي حين سمع صوت المذياع: "هنا القاهرة".. توقفت أنفاسه قبل أقدامه، وأحس بشيء يهزه هزاً، سمع صوت المذيعة تتحدث عن حوادث الطرق وكيفية تجنبها، سال دمعه حزنًا على رحيل زوجته وأولاده في حادث، هو الآن يتوكأ على عصا تصحبه في كل مكان، اعتزل العمل في مجال الصحافة، وبات كل ما يربطه بالقلم هى مذكراته التي يداوم على كتابتها في الفترة الأخيرة، وتلك المجلات والجرائد التي يتصفحها كل صباح وكأنها جدار يحتويه من هموم الحياة وبقايا خيط تملص من الموت ليشاركه ما تبقى من الأنفاس..

"رحلت ورحل معها خريف العمر، رحلت وخلفها إرث من الآهات، إرث من ذكريات الطفولة والصبا والشباب، تحل ذكراها عامًا بعد عام فيشتعل اللهيب في قلبى أكثر فأكثر، فويل لهذا القلب الذي لم يتبق فيه مكان لم يشتعل، فبات ينصهر حتى قارب على الرحيل"

تلك الكلمات كانت أول ما خطه قلم الصحافيِّ في مذكراته..

(٢)

صيف قائظ مر على أهل الكرام كسنين يوسف "عليه السلام"، نقص فيه محصول الأسماك في البحر حتى انقطع، وكأنه قد غضب على أهله ورفع راية العصيان على محبيه، ليعلنها وبكل صراحة "ما عاد لكم شيء عندي.. ابحثوا عن رزقكم في البر"

ظن بعضُ الناس أنها علامة لقيام الساعة، أصابهم الجزع ولم تعد للابتسامة مكان في قلوبهم، انقطع مصدر رزق قرية بأكملها، الصياد يغدوا راكبًا أمواج البحر أسبوعين متتاليين ولا يرجع سوى بما يسد جوع أهل بيته.

عبد القادر الذي ضرب الشيب شعر رأسه، وبرز من تحت عمامته البيضاء، وانتهى به المطاف إلى أرذل العمر، حاول مرارًا أن يتمسك بقوته التي خارت حتى لا يلفت إليه الأنظار، نظره الحاد لم يعد مثل الأمس، رافقته من حينها عصاه الغليظة، في تلك الأيام كان يملك ما يقارب الثمانية عشر مركباً للصيد، ولم يكن لدى صيادي القرية سوى ثلاث مراكب يتناوب بعضهم عليها ويقتاتون أرزاقهم، بينما يعمل كثيرٌ فوق مراكبه. حتى

عنونت جريدة الفنار طبعتها بكلمات اهتزت لها قلوب عشاق البحر.. "أهل الكرام في عداد الموتى"

كأنهم يعلمون جيداً أن أهل الكرام بدون البحر يفقدون الأمل في الحياة، يفتقدون الروح التي تمدهم بإكسير الحياة.. فما أصعب أن تعتاد شيئا يصير جزءًا من شخصيتك، يرافقك حتى في أحلامك، وفجأة يصبح سرابًا..

يئس جميع سكان القرية واشتدت المحنة، بات أهل الكرام أمام الأكواخ والبيوت كلٌ يفكر في مصيره.. بينما تجمع آخرون ممن يرون أنه ما دامت القلوب تنبض بالحياة فما زال هناك أمل في البقاء.

أمام المضيفة، جلسوا ينشدون الغناء والأهازيج التي اعتادوا عليها، "عبدالقادر" يرمقهم مشفقًا عليهم، هو يعلم أنه ليس بيدهم شيء سوى الغناء للبحر، لكن ترى متى يستجيب؟ فالأحبة يشعرون ببعض، يربطهم رابط خفيٌّ يجعل كل منهم يشتاق للآخر حتى وإن طال الغياب..

حسنين التمرجي يجلس في شرود متخلياً عن ابتسامته، في يده جريدة يطويها كالقرطاس، يتحاشى نظرات عبدالقادر له، للحظة ذرف دمعة حملها الريح وغادر، لم يستطع عبد القادر أن ينتظر أكثر من ذلك فأخذ يتقدم نحوه، لم يتحدثا، بل تحدثت أعينهما للحظات قبل أن يأخذ من يده الجريدة

ويطالع صفحاتها.. أمتقع لون وجهه واعتصر بيده الجريدة، ولم يستطع أن يتمالك قوته وسقط يلتقط أنفاسه، أصاب الصمت الحضور، الخوف على كبيرهم سيطر عليهم. عبدالقادر ينظر إلى أعينهم مبتسما، يريد أن يطمئن قلوبهم، فأخذ يتمالك نفسه واتكأ على عصاه الغليظة، على الرغم من أن بجواره كثيرٌ من الحضور، وابنه حسان الذي كان قد قدم للتو بعد صلاة العشاء في الزاوية، لكنه آثر أن يقف بنفسه على قدميه، رفع بصره صوب السماء كأنه يلتمس عفوًا ورجاءً، ثم قام بعمل رسم دائري بعصاه على الرمال، ووضع نقطة في المنتصف يخرج منها مؤشران كالساعة ثم أردف قائلا:

"يجب أن نتمسك بأهداب الأمل حتى ولو صار شبحًا في ظلمات هذا البحر، لقد ولدنا ها هنا على هذا الساحل وسنموت عليه، ولن نمد أيدينا إلى البر، هذه صنعتنا التي فطرنا الله عليها، ولتكن مشيئته.."

كلمات عبدالقادر كان لها مفعول السحر بين أهل الكرام، خرج الصيادون في الفجر متلهفين شوقاً نحو الأمل المنشود، لعلهم يجدون الملاذ المفقود. صلى حسان بهم الفجر بعد أن بات يلازم الزاوية، وقف عبد القادر أمام الزاوية في محاولة منه لإدخال الطمأنينة على قلوبهم قائلًا:

- كل بيت في الكرام باستطاعتي أن أكفيه من مالي.. أولادكم أولادي وعيالكم عيالي ولكن..

فقاطعه في تلك الأثناء صوت ينادي:

-سوف أقوم ببيع ما أمتلك من ذهب ومصوغات وأقدمها إلى صيادي الكرام فأنتم إخوة لي، ونحن أهل ومصابنا واحد حتى وإن اختلفت الأديان.

عرف عبد القادر صاحب الصوت، فارتسمت على شفتيه ابتسامة قبل أن يطبق بيده الغليظة على عصاه، ثم أومأ ببصره نحو السماء وهو يتقدم ناحية الصوت، فانقسم الوقوف أمامه إلى نصفين كستار المسرح حين ينفرج لحظة بدأ العرض، توقف أمامه مبتسماً مرة أخرى بعد أن غابت عنه الابتسامة، ربت على كتفه والتف الحضور حولهما على شكل هلالى قبل أن يعلنها وبكل صراحة:

-لا يا صديقي، يجب أن يسعى جميع الصيادين في طلب الرزق، حتى وإن أضناهم الموت جوعا.. ما خلق الإنسان في هذه الحياة كي يعيش عالة على غيره، خلقنا لنعمل وما خُلقنا كُسالى متوكلين على غير الله، ومن اليوم مراكب صيد الحاج عبد القادر تحت تصرفكم حتى تنتهى تلك الفاجعة..

صافحوا جميعهم بعضهم بعضا قبل أن يسارع كل منهم لإحضار أدوات صيده ويحملها فوق ظهره قاصداً البحر، مرددين دعوات تفريج الهموم، وكلهم أمل في أن يعودوا إلى قريتهم بخير قد انقطع وطال انتظاره.. ودعهم عبد القادر وصديقه والنساء على الشاطئ، حينها وصل ناصر لتوه بعد ترحاله الأخير إلى صعيد مصر، لكنه لم يمكث طويلًا، وانطلق مسرعاً داخل المنزل دون مصافحة أحد..

***

مرت نصف ساعة من سير الصديقين على الشاطئ، كل منهما يحمل في قلبه هموم وأسرار لم يفض بها بعد، توقف عبد القادر عند الفنار القديم لحظة تسلل أشعة الشمس من بين السحب المكسوة باللون الأحمر لتعلن عن ميلاد يوم جديد:

- لمَ كل هذه القسوة والعناد يا صديقي؟ منذ سنوات مضت وأنت مصدر الرزق الوحيد لنا، منذ سنوات مضت وأنت الملاذ لكل صياد يغدوا بين أمواجك والشباك على ظهره ويمسي وقد أغدقت عليه خيرك.. منذ سنوات خلت وأنت الراحة والأمان لنا.. عبير

موجك عطر للعاشقين ويود موجك شفاء للغافلين ..يا بحر ..يا بحر.."

ربت رمزي على كتف صديقه في محاولة لتهدئة قلبه الحزين، ثم شرع يذكره بأيام الصبا، وصداقتهم التي ولدت من رحم الحياة. رمزي يضع صداقتهم فوق كل شيء في الحياة، وصديقه يقدس الصداقة ويؤمن بأن حياة بلا صديق كجسد بلا روح. جمعتهم الصداقة صدفة، وما أجمل الأشياء التي تأتي صدفة، ذات مرة تعرض رمزي لمضايقات من بعض الصبية، حينها قام عبد القادر بتوبيخهم، وفي مرة أخرى تشاجرا سويا على الشاطئ مع أحد الصيادين، كان قد أخفى أحد الطرود الغنية بالأسماك، وفي النهاية رضخ الصياد لحكم عبدالقادر بعد أن اعترف بالسرقة، وأعاد المبلغ لصديقه.

كانا يسيران جنبًا إلى جنب، فتشاهدهما فتيات القرية اللائي قد نضجن وظهرت عليهن أمارات الزواج، فتتمنى كل واحدة منهن أن يكون أحد الصديقين من نصيبها كي تحيا معه ولو يوم واحد.. وظل الصديقان يتذكران أيام الصبا، عبدالقادر يتحدث فيكمل له رمزي ما يقع من حديثه، فأراد رمزي إدخال جو من البهجة على الحديث فمازحه قائلا:

- بيننا ذكريات بعدد شعر رأسك يا صديقي.

الأمر الذي جعل الضحك يداهم عبد القادر فلم يستطع أن يقاومه، فارتفع صوت ضحكاته التي صاحبها بعض الدمع، وسرعان ما قام بإزالته بعمامته البيضاء وكأنه يأبى أن يهبط من عليائه..

-أتتذكر يا صديقي يوم أن كنا صغارًا نلعب على هذا الشاطئ نسامر البحر ونحاكيه.

-نعم ..نعم.

-أما زلت تسامره وتحاكيه؟

-ولمَ لا؟ وهو صديقنا الثالث الذي تعاهدنا عنده ألا نفترق ما دمنا على قيد الحياة.

- لكني لمست في مناجاتك له اليوم عتاب غير معهود يا صديقي!

لجأ عبد القادر ليد صديقه ووقف على قدميه ودنا من أمواج البحر التي أخذت تقترب من الشاطئ وعانقت الرمال، فحمل قليلًا من الماء بكفيه، ثم أخذ ينثر الماء على الرمال من بين أصابعه وهو يقول:

- حين يقسو علينا الأحبة، وتخدعهم الظنون تعتصر قلوبنا حزنًا ودمعًا، وهنا يصبح أمامنا طريق واحد هو المناجاة لعلهم يتذكرون الأيام الخوالي. فلعل القادم خير.. لعل القادم خير.

ومر ذلك العام بمرارته على أهل الكرام، فكان اختبارًا صعبًا لشدة تحملهم لتلك المعاناة، خاصة أن البحر مصدر رزقهم الوحيد، ومع انتهاء الأزمة والتي لم يُعرف سبباً لها، وفي نهاية الأمر تجمع أهالي الكرام أمام مضيفة عبد القادر، فكان تجمهرًا لا حصر له، وعلى إثره قامت النساء بإطلاق صيحات من الزغاريد، أعقبها توزيعهن أكواب ممتلئة بعصير شربات الموز على أهل القرية تيمنا وفرحا بعودة الغائب لأهله. الشربات الأحمر يتم توزيعه على المارة في يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، صلى الله عليه وسلم، لكن من فرط السعادة يومها قاموا بتحضيره قبل موعده، وأعلنوا جميعاً تنصيب عبد القادر شيخًا لصيادي الكرام والمنوط به حمايتهم ورعايتهم والتحدث عن كل ما يتعلق بهم أمام جميع الجهات، عرفانا بالجميل وبالمعروف الذي صنعه معهم خلال تلك الأزمة، وكان لابد من مواجهة مثل تلك الأزمات مستقبلا، فأعلن عبد القادر عن إنشاء جمعية تعاونية لخدمة الصيادين، يقوم كل صياد بتسليم ما يقوم بجمعه من طرود أسماك للجمعية، فتتولى الجمعية عملية بيع الطرود بالمزاد حتى يجني جميع الصيادين أقصى استفادة.

***

في أيام المحنة برز دور ربيع ابنه الأصغر، وهو يشد على يد الصيادين ويعمل معهم بكل جهد وهمة ونشاط، حبه الشديد لأهل الكرام كان دافعًا له، جعله يفضل أن يضحي براحته في سبيل العمل مع أصدقائه وأهل قريته. وعلى النقيض فناصر الأخ الشقيق لـحسان يذهب إلى الجنوب لإقامة علاقات مع صيادي السد.

ذات مرة جلس بصحبة أحد الصيادين الذي جاء يتعذر عن دفع الدين، فنهره ناصر في لوم شديد، وارتفع صوتهما حتى وصل للخارج حيث يجلس عبدالقادر وصاحبه. فاقتحم عليهما المضيفة بعصاه، ووقف على باب المضيفة للحظات وهو ينظر إليهما نظرته المعهودة والتي كان يتحاشاها جميع الصيادين، عمَّ الصمت المكان حتى ارتقى مجلسه. أشار إليهما بالجلوس، في تلك اللحظة أصاب ناصر الكبر والغرور، فوضع إحدى قدميه على الأخرى، عبد القادر بحكمته وكياسته استطاع أن يحتويه بنظرة من عينيه فعاد ثانية إلى رشده. وتحدث عبدالقادر موجهاً حديثه للصياد في محاولة منه لإعلاء شأن ابنه:

- أتعلم يا منتصر أن غضبي فيضان كفيضان البحر، خاصة عندما يرتفع صوت في حضرة مضيفتي.

لم يحرك الصياد ساكنًا، وظن للحظة أنه دخل عرين الأسد ولن يخرج منه على أي حال، فاستغل ناصر الفرصة وتحدث عن السبب الذي جاء من أجله الرجل.. هنا نظر إليه عبدالقادر نظرة لُطف وعطف مستفسرًا عن سبب التأخر، فأجابه الصياد بصوت يائس حزين وهانت عليه نفسه:

- أعمل على مراكب المعلم ربيع منذ ثلاثة أعوام، ولم أتأخر يوماً عن العمل و...

في تلك الأثناء أحمر وجه ناصر كالجمر، بل وبات قريب الشبه بأسماك "السلطان"، وبدا الغضب على وجهه، وأشار ناحية النافذة في غضب قائلا:

- جميع مراكب الصيد باسم الحاج عبدالقادر، لا يملك ربيع ولا غيره شيئا منها.

هز عبد القادر رأسه وهو يقول:

- تحدث يا ولدى.. أكمل حديثك يا منتصر.

واصل منتصر الصياد الحديث متحاشياً نظرات ناصر، وأخذ يتحدث عن خطبة ابنتهالتي جعلته يعمل ليل نهار، خاصة بعد تحديد موعد الزفاف،

فأصبح يعمل ليل نهار في البحر راكبًا أمواجه أيامًا حتى يعود وفي جعبته ما يساعده على زواجها..

فقاطعه عبد القادر مبتسما:

- أتمَّ الله عليكم الفرح يا ولدي.. لا تحزن، سيكون كل شيء على ما يرام.. يا رجل اتركها لخالق الكون هو يدبرها بأمر من عنده، إنما يقول كن فيكون..

تلك الكلمات كانت كفيلة أن تتبدل حال الرجل وتعلو وجهه الابتسامة ويتسلل الفرح إلى قلبه، قبل أن يعود عبدالقادر مازحاً إياه بأنه لن يتذوق طعم للشاى على شاطئ البحر من بعدها، وشرع يؤكد له أنه سيؤجل موعد السداد حتى يستطع أن يوفي التزاماته..

"كيف يحدث هذا؟ إن أبي يدفعنا إلى حافة الفقر بأفعاله، إنه لا يتوارى عن مساعدة هؤلاء المرتزقة والشحاذين ليل نهار، أموالنا التي نسعى ليل نهار للحفاظ عليها يأتي هو ويضيعها هباء منثورًا؟ لا.. لن يحدث هذا ثانية، ولن أصمت بعد اليوم، لن يأتي اليوم الذي أجد نفسي فقيراً مثلهم.."

ظل ناصر يكتم غيظه ويحدث نفسه، ويحدق بعينيه التي يكاد يخرج منهما الشرر، بينما وجه منتصر أصبح عامراً بالسرور والسعادة، لكنها لم تدم خاصة بعد أن أمر عبدالقادر ولده أن يؤجل موعد سداد دين الرجل قبل أن يتراجع ويأمره بطي صفحة الدين، وكأنها لم تكن، فأبى منتصر أن تكون هكذا طريقة سداده للدين، وتعهد بالسداد بعد أن يمده بمهلة أخرى، لكن عبد القادر ظل على موقفه، فاستشاط ناصر غضبا وأخذ يتمتم..:

"كيف نتنازل عن حقوقنا هكذا بكل بساطة للغرباء؟".

رحل بعدها منتصر وهو في نفسه منتصرٌ على أمل أن تغلق صفحة الدين عنه، فما كان من ناصر إلا أن رفع راية العصيان على أبيه متحديًا إياه بعدم التنازل عن دين الرجل.. عبدالقادر كان حليماً لأبعد حد ممكن، فأخذ يتحدث معه بهوادة ولطف، لكن ناصر تشبث برأيه وانفجر بركان غضبه قائلًا:

- هذا المال ملك لنا، ولن أمحو دين الصياد مهما حدث.. كفى يا أبي تفريطا في مالنا من أجل هؤلاء الحفاة العراة، فهم يستغلون طيبة قلبك المبالغ فيها لتجود عليهم وتعطف عليهم بما ملكت يمينك، يقف أولهم عند المضيفة وأخرهم عند الفنار في مشهد مهيب من

أجل أن تغدق عليهم بمالك، مالك الذي تعبنا في سبيل جمعه السنوات والسنوات وهم..

ظل عبدالقادر يستمع لحديث ابنه، وجوفه يغلي كالمرجل فوق النار، وفجأة ضرب بعصاه الطاولة قائلًا:

-كفى.. كفى يا ولدي كفى.. ما هذا الحقد والغل الذي ملأ صدرك؟ من أين جئت بكل هذا؟ هيا اخرج إلى البحر كي يطهر قلبك إن كان فيه ما يصلح للطهارة.

عاود ناصر الحديث ثانية:

- لن أخرج قبل أن تكتب لي إرثاً مثل إرث ولدك ربيع، ذلك هو العدل إن كنت تعرف للعدل طريقًا و..

لم يكمل ناصر حديثه حتى هوى عبدالقادر بيده على وجهه، على إثر ذلك هرع رمزي إلى المضيفة يحمل ناصر بعيدًا عن بركان صديقه المتأجج، فلوَّح ناصر بيده وأخذ يتحدث عن تفضيل عبدالقادر لابنه الأصغر ربيع على ولديه ناصر وحسان أبناء الزوجة الثانية، بينما رمزي يجاهد في تهدئة حرارة الموقف قائلًا:

- يا ولدي المال مال الرب، ولا يملك أحد منا شيئا على الأرض سوى تلك الحفرةالتي يشتريها بماله ليدفن فيها، وغير ذلك لا يملك الإنسان شيئا في الحياة.. خذها من رجل أحكمته تجارب الحياة.. كل شيء سيزول، الإنسان في الدنيا يزرع لتحصد روحه بعد الموت ما قدمه.

لم يقتنع ناصر بحديث رمزي، وأخذا يتبادلان الحوار بينما شرد الأب بعقله بعيدًا: "لن ينصلح حال هذا العاق الكافر بالنعم، فمنذ أن خرج إلى الدنيا وفي قلبه حقد وبغض لجميع الناس، وكأن القدر يعاقبني على شيء ليس لى شأن فيه، إن عقلي يكاد ينفجر وما عدت أحتمل.. أعلم أني أخطأت حين قمت بكتابة بعض الثروة لأخيه، لكني أردت حينها تأديب هذا العاق حتى ينصلح أمره .."

في تلك اللحظة سقط عبد القادر أرضًا فقام رمزي بحمله وأجلسه على الكرسي، فتقدم ناصر لمساعدته ليجد عصا أبيه حائلًا أمامه وتوعده قائلًا:

-من الليلة لن يكون لك مكان هنا، اخرج من بيتي..

فرفع عباءته على كتفه وولى مسرعًا ولم يعقب، إلا بعد أن أتاه نبأ مرض أبيه الذي جعله طريح الفراش لمدة قاربت الشهر، ظلت زوجة ناصر

في خدمته.. أما ربيع فكان يداويه ليلًا ويجلس بجواره يتلو آيات من كتاب الله تيمنا حتى يشفيه الله، بينما زوجة حسان تداويه وتعاوده نهارًا.

***

حسان الدرويش.. هكذا عُرف حسان بين أهل الكرام، بعد انعزاله عن جميع أهل القرية في زاوية يؤدي بها الصلوات الخمس ويعود في المساء.. حياته تسير على وتيرة واحدة خاصة بعد غرق ابنه عبدالله في العاشرة من عمره.

***

صوت ارتطام قطرات المطر بالأرض كان كآلة موسيقية تعزف لحناً حزيناً على وتر مشدود.. جميع أهل الكرام تبدلت أحوالهم إلى حزن على كبيرهم الذي داهمه مرض الموت، هو بمثابة الدرع للجندي، هو الدرع وأبناء الكرام جنوده الذين ينصاعون لأوامره فيحميهم..

(٣)

عاد "سليم" من محكمة جنايات طنطا منهكًا بعد عمل شاق، فأخذ يتفحص بذلته فوجدها في حالة يرثى لها، بعد أن أصابها المطر فمط شفتاه وأخذ يعزي نفسه فيها. أثار ما بين يدى "سليم" من طعام حاسة الشم لدى جرو صغير يمتلكه أحد رواد الفندق، نظر إليه سليم رافعاً حاجبيه للحظات ثم واصل الصعود حاملًا طعامه وتلك الزجاجة الخضراء الملفوفة بورق الجرائد الأصفر.. واصل التقدم لأعلى السلم والجرو لا يكف عن النباح، فاستوقفه عامل الفندق بخبر عكَّر عليه صفو ليلته. فنظر إلى يده اليمنى وعطف بعينه على اليسرى وهو يبرز شفتيه متحدثا إلى الجرو الصغير الذي لم يكف عن النباح وأردف قائلا له:

- ليلتك سعيدة يا صديقي.. استمتع بالطعام وحدك.

وطلب من عامل الفندق أن يحضر سيارة أجرة، وبعد دقائق استقل "سليم" السيارة، وأمر السائق أن يسرع في السير إلى بيت الحاج "عبد القادر".

***

فور وصوله استقبله ناصر مستفسراً عن سبب حضوره على غير المعتاد، فازداد "سليم" حيرة، ووضع ناصر يده على عمامته البيضاء، ورفع طرف عينيه إلى السماء مطلقا صوت أنين كاد يصل إلى عنان السماء وأخذ يحدث نفسه: "آه.. آه يا بن عبدالقادر.. أي مستقبل آتٍ وقد كتب أبوك من قبل جزءا من التركة لولده، فماذا سيفعل الآن بعد ما حدث بينك وبينه.. لن أدعه يفعلها ثانية".

رفع "ناصر" عباءته على كتفه وأمسك بيد المحامي وجذبه إلى الداخل خلفه، وفور دخوله توجه به إلى غرفة عبدالقادرالتي امتلأت بأهل البيت من النساء والرجال، وفور إلقاء سليم التحية على الحضور خرج النسوة وتبعهم الأبناء.. أما "عبد القادر" لما سمع صوت "سليم" عادت إليه روحه من جديد، وبدأ يستعيد وعيه، جلس "سليم" ووضع حقيبته جانبه وجميعهم ينظرون لبعضهم بعضا، فأشار "عبد القادر" لأولاده بالخروج، فكان آخرهم "ناصر" الذي أخذ يلقي نظرات الترقب والخيفة على والده..

وبات البيت في هذه الأثناء أشبه بممر أمام غرفة العمليات، ينتظر جميعهم خروج المحامي ليعرف سبب حضوره، على الرغم من أن حضوره في مثل تلك الحالة يصبح أمرًا في غاية الوضوح لكنهم تظاهروا بالغباء.

"حسان" فطن سريعًا لأمر أبيه، فأمسك المصحف وجلس يتلو الآيات، بينما "ربيع" يدعوا. وما هي إلا أيام حتى سكنت النوة ثم امتلأ السرادق بأهل الكرام ..

(كتب جمال في إحدى صفحات مذكراته..)

يا بياعين الفرح

نصيبى فين ألاقيه

شجر السعادة طرح

عشمان يكون لى فيه

(٤)

توقفت عجلات القطار رقم ٣٩٠ "القاهرة- الإسكندرية" في محطته الأخيرة، طرح حقيبة ملابسه الثقيلة أرضا، ثم أخذ يلتقط أنفاسه من عبء تلك الرحلة ومشقتها.. لفت انتباهه الهدوء الذي خيم على المحطة، وعلى غير العادة فكل شيء ساكن، فلم ينزل من القطار غيره، "وكأني في مدينة الموتى.. هل أصاب المدينة داء جعلهم لا يغادرون منازلهم؟".

بتلك الكلمات أخذ يحدث نفسه، اعتاد "جمال" أن تكون المحطة مكتظة بالمسافرين، وعمال المحطة الذين كانوا ينتشرون بطول الرصيف لحمل حقائب المسافرين، فما وجد غير تلك الحمامة التي اتخذت من سقف أحد أعمدة الإنارة عُشًّا كي تضع فيه بيضها الصغير، فلم يكن أمامه إلا أن يحمل رفيقته فوق كتفه، واستقر به الحال داخل القطار الداخلي المتجه إلى قريته، مرَّت المحطة تلو الأخرى وهو يجلس بمفرده داخل المقطورة وبجواره النافذة، يتذكر أيام الطفولة ودور "عبدالقادر" في تربيته ونشأته.. حبه الأول وهو في المرحلة الابتدائية، ظل يتذكر تلك الأيام وهو يبتسم..

***

"تبا لقطار العمر إنه يسرع الخُطى دون توقف، لحظة تتبعها دقيقة ثم ساعة، هكذا يدور الزمن ويتغير كل شيء.. لم يبق شيء على حاله، حتى قريتي تغيرت ملامحها وعلاها الشيب قبل أن يشيب شبابها..". بتلك الكلمات استقبل "جمال" نسائم قريته..

التزم الحذر في أثناء السير خوفاً من أن يهوي في مياه "البرك"، الإسكندرية عشق جمال ومعشوقة كثير من الناس، لكن لا يعرف قيمتها إلا من ولد على أرضها، قديما حين كان يولد طفل في قرية الكرام، سرعان ما كان يحمله أبوه إلى البحر حتى يغسله بمائه فلا يبتعد عنه..

اعتاد "جمال" أن يبادر فور عودته إلى البحر كي يلقي أمامه جبل همومه، إلا أنه في تلك المرة حدث شيء ما جعله يسرع الخطى نحو منزل "عبد القادر"، حين تلقى الخبر، اصطكت أسنانه وأصابته رجفة، لم يكن يجول بخاطره للحظة أن روح "عبدالقادر" ستغادر الحياة، اضطربت مشاعره حينها من هول الصدمة، أيقن أنه سيعيش حياته القادمة بلا وطن، شريط الذكريات أخذ يعرض أمامه نبوءة شيخ الصيادين له بأنه سيصبح يومًا ما صحافيًّا كبيرًا، وقد تحقق ذلك، لم ينسَ يوم أن شاهده يقف على الشاطئ في البرد القارص يتابع حركة العمل مثل شاب في مُقتبل العمر، دون خوف من مرض أو غيره.

***

سار يتلمس خطاه نحو المضيفة حتى توقف أمامها، أبواب المضيفة مغلقة فحدثته نفسه أنَّ لا أحد هنا، وبعد دقيقة سمع صوت شجار وعراك، من بين تلك الأصوات تعرف على صوت "حسان" صديقه، فاقترب من الباب أكثر بعد أن طرح الحقيبة، لكنه سرعان ما فكر في الرحيل، وظل هكذا يحدث نفسه، وبعد لحظات من رفع الحقيبة فوق كتفيه وضعها مرة ثانية كأم تحنو على صغيرها..

***

شرع سليم في فتح حقيبته السوداء، وفي أثناء إخراجه محتوياته توقف للحظة للترحم على الفقيد، من خلف نظارته أخذ يتابع نظرات الإخوة فيتوجس وخيفة، عم الهدوء المضيفة وحُبست الأنفاس، كل واحد من الإخوة ينتظر جزءا من المال والعقار والمراكب وأشياء لم يصنع منها شيء، لكنها سُنة الحياة؛ نحيا لنزرع ويأتي من يحصد ويجمع دون نصب أو تعب..

***

شيء ما جعل "جمال" يغير المسار ناحية النافذة الغربية للمضيفة، حيث أرض خلاء عليها بعض مراكب الصيد التابعة لجمعية الصيادين،

اتخذ من بعض الأخشاب سُلمًا، وأخذ يسترق السمع ويتلصص النظر عليهم..

"ناصر" اعتلى مقعد أبيه ومجلسه باعتباره الابن الأكبر، نظراته لإخوته كانت مخيفة، حديث نفسه سيطر عليه: " لقد ذهبت النوة بلا رجعة، أخرج لنا ما في جعبتك أيها الحاوي". "اذكروا محاسن موتاكم"، قالها " ربيع" وكأنه يعلم ما في نفس أخيه، فاشتعل لهيب الأحداث بينهما، كلٌّ منهما يُكيل الاتهامات على الآخر، " ناصر" يحمل أخيه تبعات قيام والده بكتابة بعض المراكب وجزء من التركة فيحياته لـه، والآخر يرد بأنه وافق على ذلك حتى لا يتعرض للطرد من البيت.. وانفجر بركان الغضب بينهما، حتى تدخل "حسان" الشيخ، فيمحاولة منه لتهدئة الأمور مذكراً إياهما أن المال والسلطان لن يجديا نفعاً بعد الموت، فكل شيء إلى زوال، وكما رحل "عبدالقادر" دون أن يأخذ شيئا، سيرحل جميع الناس أيضاً. هطلت كلماته عليهما غيثَ السماء بعد سنوات عجاف، وما من دقائق حتى ضرب زلزال بقوة ثلاثة ريختر أرجاء المضيفة، حين أعلن "سليم" أن التركة بأكملها ملك للحاجة "تهاني" زوجة المعلم "ناصر" بموجب إقرار تنازل رسمي.. أصابتهم جميعًا الدهشة والصمت للحظات، "سليم" بدأ يجمع

الأوراق من فوق الطاولة ويضعها في الحقيبة دون ترتيب وهو يقول مضطربًا:

- قبل أن يتحدث أحد ويطعن في أمانتي، يعلم الله أني لم أكن لأوافق على ما حدث، لكن أنتم تعلمون جيدًا من هو "عبد القادر".

في هذه اللحظة انتفض "ربيع" من صمته، وأحمر وجهه وضرب كفًّا بكف في عنف شديد ،عقله غير قادر على استيعاب ما يحدث، للحد الذي جعله يصف ذلك بالعهر.. لم يجد "ناصر" مناصا سوى الدفاع عن زوجته، حتى لا يتهمه أحد، فأخذ يدافع عما فعله والده مؤكداً على حديث المحامي أن والده مادام فعل ذلك بكل حريته وفي كامل قواه العقلية فلا شيء عليه..

- أستودعكم الله...

سمع "ربيع" هذه الجملة فانتفض من مكانه وأمسك بتلابيب "سليم" ليتشاجر معه، ودارت رحى معركة من جديد وعراك على إثره تعرض "سليم" لضربة على رأسه طرحته أرضًا، فسالت الدماء من رأسه فحمله "ناصر" وجره إلى الخارج، ثم وضعه فيمقعد السيارة الخلفي وانطلق مسرعًا..

***

اشتد الألم على "سليم"، وبدوره أخذ ناصر يهدئ من روعه بإخباره أن كل شيء سيكون على ما يرام، مؤكدا له على وعده أنه سينال ما تم الاتفاق عليه. أخذ يتحسس رأسه وهو يقول:

– لقد كدت أفقد حياتي مقابل دورٍ في مسرحية هزلية..

تهكم "ناصر" من قوله هزلية وعاد يطمئن قلبه أن ما تم الاتفاق عليه سيحدث فور أن يستتب الأمر له:

– تخيل يا "سليم" أنك أصبحت المستشار القانوني لمجموعة شركات ناصر للاستيراد والتصدير... أنت تجلس على كرسي في مكتبك المرموق في أعظم مكان في المدينة..

جال في مخيلته تحقيق الحلم الذي ظل طيلة حياته يبحث عنه، وهو صعود السلم نحو سماء الشهرة في سرعة البرق، حديث أهل قريته المستمر عن قضاياه التي يحصل فيها على البراءة من أول جلسة، نتيجة استغلاله لثغرات القانون كان يؤرق عليه صفو أيامه، فجعله يعد لافتة في مكتبه كتب عليها: "كل شيء في مدينتي قابل للكسر.. سوى القانون" وفي أثناء حديث ناصر له قفز إلى تفكيره ما يلاحقه ليل نهار.

(٥)

انتصف الليل وسطع القمر في سماء قرية "ميت شبر"، توقفت الأمطار وتلاشت السُحب المُحملة ببخار الماء، باتت الشوارع خاوية من المارة منذ العشاء، هدوء تام سيطر على المشهد، نقيق الضفادع على حافة "الترعة" صار أنيسًا لصوت بعض الفتيان الذين أشعلوا النار في غصون الأشجار اليابسة على أطراف البلدة..

خرجت "ريم" من المستشفى في تمام العاشرة بعد عمل يوم شاق، صاحبة القوام الممشوق، والشعر الأسود، بمثابة الحلم الذي يحلم به كل شاب في القرية، تقدس عملها في مهنة الطب على الرغم من المشقة والتعب، مازالت على العهد مع نفسها أن تظل دائما في خدمة المرضى مهما كلفها من نصب..

استطاعت أن تصل إلى أطراف البلدة بعد أن استقلت سيارة تلو الأخرى، وبعد مشقة وتعب وضعت أطراف قدميها على الأطراف الجنوبية للبلدة، وما إن شاهدت ضوء النار من بعيد اطمئن قلبها، واستبشرت خيراً فقد تحقق حلم الوصول بعد معاناة.

– الحمد لله، سأنال منها قبسًا لعلها تهديني في سبيل عودتي إلى المنزل..

سارت "ريم" تقدم قدما وتسبقها الأخرى، تسير والرجفة تصحبها في طقس قارص البرودة، شاهدت أحد الفتيان يقترب منها، فضمت إليها حقيبة الكتف وأسرعت الخطى، بينما هو يسير خلفها فتبعه آخرون بعد أن أشار إليهم. قلبها يدب دبيًا وتتصبب عرقًا، تسير فتتعثر قدماها في برك الماء، فتحاول القيام مرة أخرى، تتابع السير ولا تجد أحدًا تستغيث به، تريد الوصول إلى بيت أبيها وبسرعة، لحق بها أحدهم وأخذ يجذبها من الخلف، فتوقفت واستدارت ناحيته وهي تضم الحقيبة أكثر إلى قلبها في فزع ورعب شديد، اصطكاك أسنانها بات يصارع ضربات قلبها، عيناها تتابعه وتتابع القادم البعيد..

"يا رب.. انقذني يا رب" حديث عقلها لم يجد أحداً يحادثه غير ربه.. لم تجد مناصا إلا أن تبصق في وجه الذي حاول الاقتراب منها، فانهال عليها بيسراه صفعاً، صاحت بصوت مرتفع لكن لا مغيث، وبدأ الخمسة يتناوبون عليها يجذبونها داخل "كوخ" صغير سقفه من جريد النخل، وجدرانه من الطوب اللبن، وجدوا فيها ما يكفيهم لسد حاجتهم من الشهوة العفنة، لكنها تأبى أن تستسلم لهم؛ دافعت عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة ، لكن لا مفر؛ فقد وقعت بين يد ذئاب لا يعرفون الرحمة، حتى سمع صوت استغاثتها سيف الحق وميزان العدل. كان يسير في تؤدة يحاول أن يتفادى

البرك ومستنقعات الأمطار، يدندن بعض المقاطع الموسيقية، فاستوقفه صوت صراخ الفتاة القادم من الاتجاه الآخر للترعة.

"إنه صوت لفتاة تستغيث من هناك.. من الجانب الآخر". ألقى السيجارة التي أشعلها قبل ثوان أرضًا، وأخذ يلتفت حتى وجد ممرًّا مصنوعًا من جذع شجرة ممداً فوق الماء، وعلى بعد خطوات أخذ يتقدم نحوه وعبر بسرعة قاصداً مصدر الصوت، لم يعبأ بملابسهالتي اتسخت حين انزلقت قدماه في إحدى البرك، وواصل العدو حتى شاهد النيران موقدة بجانب الكوخ..

ظلت "ريم" تحافظ على عذريتها في محاولة منها للحفاظ على شرفها قدر المستطاع، لكن ماذا تفعل تلك المسكينة وهي بين أيدي ذئاب لا ترحم، وقد نُزعت من قلوبهم الرحمة والشفقة، لم تشفع لديهم استغاثتها بربها..

اقترب "سليم" من الكوخ، ونزع سلاحه الناري من جعبته ثم أطلق رصاصة في الهواء، خرج على إثرها الذئاب الخمسة من الكوخ يهرولون الواحد تلو الآخر تتخبط أقدامهم، حينها تقدم "سليم" ناحية باب الكوخ وقلبه يرتجف على المسكينة؛ خوفا من أن يكون قد لحق بها أذى، أخذ يفحص الكوخ بعينيه بحثاً، كانت تجلس متكورة فيإحدى الزوايا تبكي بكاء شديدا، وما إن شاهدته حتى أغشي عليها.. لم يجد بُدًّا من أن

يستعين بحقيبتها ليخرج زجاجة عطر كي تساعده في إفاقتها، لحظات حتى أخذت تستعيد توازنها من جديد، وهي تحاول أن تجمع شتات ملابسها الممزقة.

قام "سليم" بتمرير يده على أزرار بذلته الواحد تلو الآخر، ثم نزعها عن كتفه وتقدم خطوة نحوها ووضعه فوق جسدها المرتعش، فجمعت شتات ملابسها والخوف يسيطر عليها، فأخذ يهدئ من روعها قائلًا:

- لقد رحلوا جميعا منكبين على وجوههم.. لا خوف الآن، اطمئني، هيا لنبتعد من هنا وبسرعة، فما كنت أمتلك في جعبتي سوى طلقة واحدة صوبتها إلى السماء.. وأحمد الله أن إنقاذك كان على يدي يا حبيبتي..

نظرت إلى فستانها الممزق نظرة فاحصة وأردفت في نبرة ضعف ووهن: لابد وأن أعود للمنزل وبسرعة، ولكن ماذا أخبر أبي إذا شاهدني على تلك الحالة؟

قفز الشيطان إلى عقل سليم بعد صراع بينهما، وبعد دقيقة من الصمت توقف عن السير ونظر إليها قائلًا: - الحل عند "حسنات"..

صاحت مرددة:

- حسنات!

حاول "سليم" أن يقنعها أن هذا هو الحل الوحيد، فهناك تستطيع أن تقوم بتغيير ملابسها إلى أخرى جديدة، ومع تضييق الخناق عليها لم تجد بُدًّا من الموافقة على الذهاب معه.

في أثناء سيرهما أخذ يجاهد من أجل أن تعود المياه إلى مجاريها مجدداً، فلم يمضِ على فسخ خطبتهما سوى بضع أشهر، لم تغفر له ما قام بفعله وما شاهدته بعينها، فأخذ يقدم لها جرعة من الحب كالسابق، لكن ذلك لم يشفع له، فالمرأة كائن متفرد في نوعه، فإذا أعجبت فتاة بالرجل أحبته، وإذا احبته عشقته، وإذا عشقته صار لها كل شيء في الحياة "الماء.. والهواء"، لكن إياك والخيانة يا صديقي، حينها ستكون أسيرًا بين المقصلة والسندان، ولن تشفع لك ولو ذكرى.

***

منزل حسنات على أطراف القرية، يرتاده الزوار من كبار السن نساء ورجالا ليلة الجمعة الأخيرة من كل شهر، قضاء بضع ساعات فيمنزل "حسنات" كان كفيلًا بتغيير الحالة المزاجية لمن يدخله مهمومًا، لم تجد ربة البيت شيئا يخفيها عن أعين الشرطة سوى استخدام "الزار" أو "الكودية".

طرق "سليم" الباب فخرجت "حسنات" وعليها ملابس شفافة تبرز مفاتنها تحدث نفسها:

- سأغادر أخيرًا من البلدة الظالم أهلها.. لكن من الطارق الآن؟ لقد قمت بالاعتذار عن حفل الليلة..

سارت تلعن موظف الكهرباء وكأنه سبب في انقطاعها، صوت "سليم" كان كفيلًا باطمئنان قلبها، تقدمت وهي تحمل مشعلًا صغيرا، وما إن فتحت الباب حتى ارتسم على وجهها ابتسامة فرح، مع إصدارها صوتًا يسخر من "سليم"، وجهت أنوار المشعل نحو وجهه وهمت تجذبه كالمعتاد من قميصه بعد أن تناولت ما تبقى في الكأس، لكن وجود "ريم" بجواره حال دون ذلك. انقبض قلبها، ضربت بيدها على صدرها بعد أن سقط منها الكأس، ظنت أن الكحول يخيل لها ما تراه، أخذت تعيد النظر ثانية، تأكدت من حركات رأسه أنها على دراية بما يحدث، تقدم يسبقها إلى الداخل يخطو عتبات البيت واحدة تلو الأخرى، كأنه يعرف أركان البيت وما يحتويه، بينما "ريم" لازمت الصمت وهي تتحسس عتبات البيت، تقدم قدم وتؤخر الأخرى، تسير تحت جناح "حسنات" وتناست للحظة

أمر المنزل وصاحبته وألقت بنفسها بين أحضانها.. بينما الأخرى لم تجد مناصا من أن تأخذها بين جناحيها، بعد أن أخمدت نار الغيرة مؤقتًا.

دخلت "ريم" إلى إحدى الغرف لتبديل فُستانها الممزق بآخر، بينما نار الغيرة تأكل في جسد "حسنات" الذي تلوى كالثعبان في أثناء عودتها إلى "سليم"، جلست بجواره توبخه على فعلته، ظناً منها أنه من فعل ذلك، لكنه سرعان ما أخبرها الحقيقة، فتحول بصرها ناحية الغرفة ومال قلبها، لكنها سرعان ما لبثت أن تذكرت تلك العلاقة التي ربطت بينهما سابقاً؛ فخافت أن يعودا مرة أخرى.. التقطت حسنات طرف عصا النارجيلة مزاجها المفضل، واتكأت على إحدى يديها وهي ترمق "سليم"، بينما يخرج الدخان المحترق من جوفها الممزق محملًا بمزيد من الآهات، ثم أردفت بصوت يشوبه السخرية.

- اذهب إلى هناك وأحضر ما تحب أن تشربه..

استعاذ "سليم" وأخبرها أنه تاب في محاولة منه لإنهاء الأمر سريعًا. فعادت وأطلقت صوت السخرية مرة أخرى مردفة:

- لقد تاب الله عليك.. مدد يا شيخ "سليم"!

ابتلع ريقه بصعوبة، ومع تناوله أول كأس من يدها أخذ يترحم على الأيام التي جمعت بينه وبين "ريم"، حتى جاء به القدر اليوم لينقذها،

فتوجست "حسنات" خيفة وأخذت تدس السُم في العسل، وأكدت له نبأ تقدم ابن عمه "عمار القصاص" لخطبة "ريم".

لم يصدق ما قالته "حسنات"، فقام برفع ما تبقى من الزجاجة على دفعة واحدة، فبات لا يرى أمامه شيئا، "حسنات" تركته قبل أن تعود إليه بعد دقائق وهي تقدم له "ريم" على فُرش من ذهب..

صار "سليم" يتذكر تلك الليلة بكل تفاصيلها، فكان لا مناص له إلا أن يرضخ لوسوسة "ناصر"، وتم تحرير العقد في صباح اليوم التالي بمكتب الشهر العقاري، بعد أن قام "سليم" بإحضار إمضاء "عبد القادر" على ورقة بيضاء كانت أسفل مجموعة أوراق قام المرحوم بتحريرها بخط يده، وبدوره تحصل الموظف المختص على رشوة بدافع تزوير بتاريخ أربعة أشهر مضت أي قبل الوفاة..

(٦)

هجرت أشعة شمس شهر أغسطس سماء الكون الفسيح، لتخترق النافذة الزجاجية لأحد المكاتب الفخمة، يبدو على أثاثه الأبهة والعظمة، صوت الآلة الكاتبة لا يتوقف في جرس موسيقي عذب، الكتبة يجلسون في غرفة كبيرة في اصطفاف أمام بعضهم بعضًا منكبين على عملهم، في المؤخرة مكتبين منفصلين عن بعضهما بعضا وبينهما باب جرار، الأول تجلس فيه سكرتيرة ذو وجه حسن، تُدون بعض المواعيد في دفترها الصغير، على يمينها الهاتف الأرضي الخاص بالمكتب، وآخر داخلي للتواصل بين العاملين.

"فائقة الذكاء"، تلك الصفة التي تم تحديدها في إعلان الوظائف الخالية، ظلت تبحث كثيرا عن عمل يرضي طموحها، تقدس عملها وتحترم مواعيده، دورها الكبير في إدارة شئون المكتب جعل صاحبه يعتمد عليها كثيرًا.

في الغرفة ذات الباب الجرار كرسي ظهره تجاه الباب ووجهه ناحية النافذة، السحابة التي تملأ الغرفة تخرج من سيجار سويسري يبدو أنه قد تم إشعاله منذ نصف الساعة، إنها تتكور على نفسها لتأخذ طريقها نحو سقف

الغرفة المطرز بألوان تضيف للمكتب فخامة، على الكرسي الدوار يجلس يتابع في هدوء وسكينة المارة بالشارع، لم تتحرك له قدم منذ أن أشعل سيجاره، وتركه على المكتب حتى دق جرس الهاتف.. رفع سماعة الهاتف الداخلي، ثم استدار ناحية النافذة متحدثًا إلى السكرتيرة أنه لا يريد التحدث مع أحد، فأجابت على الفور أن على الهاتف "سالم" باشا السلحدار. اعتدل على كرسيه وارتسمت على وجهه الابتسامة، وراح يلقي عليه تحية الصباح.

سالم شاب في الأربعين من عمره، له سلطة ونفوذ بالداخل والخارج، أصلع الرأس، ذو جسد ضخم، عريض المنكبين، بالإضافة إلى طوله الفارع، لكمة واحدة من يده كفيلة بإزهاق روح من يقف أمامه، يقال إنه كان يمارس رياضة الكاراتيه ذات يوم، واعتزل اللعب بعد أن كاد يزهق روح أحد الخصوم.. لم يستطع "سالم" أن يتحمل حماقة سليم، هكذا كان يصفه دائما "إنه بارع في إهدار الوقت.. يختلس من الوقت كثيرًا نظير أن يحقق غرضه" فقاطعه قائلا:

- مرت أشهر على وفاة "عبد القادر"..

- كل شيء أصبح الآن على ما يرام.

-إذن سأنتظر..

وضع "سليم" سماعة التليفون وأشعل سيجاره الذي انطفأ، وراح يفكر فيما آلت إليه حاله بعد أن وعده "ناصر" بشقة فاخرة ومكتب محاماة وسكرتارية، وعدد من الكتبة، إضافة إلى وظيفة المستشار الفني لشركة التصدير.

ذاع صيته في البر كله لاسيما وأصبح يُطلب في القضايا الكبرى في المدينة، خاصة بعد قضية "الاختلاس الكبرى"، والتي كان متهمًا فيها رجل الأعمال ووزير الاقتصاد "إحسان ناصف" الملقب بالحوت. وما إن وطئت قدمه ساحة القضاء والتفت حوله عدسات المصورين وأقلام الصحفيين، شعر للحظة أنه لم يتولَّ أمور قضية قبل اليوم، شعور غريب لم يزُرْ قلبه منذ زمن بعيد، بين عشية وضحاها صار يتودد له الصحفيين في محاولة لأخذ كلمة عن القضية بعد أن كان لا يعرفه أحد.

"المجد ينتظرك يا سليم بعد كلمة البراءة هيا يا رجل.. لقد أرسل معك كتيبة من المحامين وجعلتك قائدًا عليهم، لا تدع الفرصة تذهب سدى، تشجع وتحلَّ بالقوة، أنت على عتبات المجد، ويفصل بينك وبين المجد خطوة، كلمة ينطق بها القاضي ترتفع معها أسهمك في البنوك أو تهوي بها في براثن النسيان.. لكني سأنتصر بفضل قوتي وذكائي، ولن أهوي في

براثن النسيان أبدا، في مدينتي كتاب التاريخ مدادهم الأهواء ومن يسقط في براثن النسيان لن يذكره التاريخ بخير."

قوات الأمن أحاطت به بعد أن أصبحت القضية محل جدال ونقاش على صفحات الجرائد.. "جمال" كان له دور كبير في كشف الفاسدين، وظل يحتفظ بالعدد الذي صدر به مقاله المشهور..

"كانت البداية عندما أجهزنا على مبادئنا، فلا يهم إن كنت ديمقراطيا أو ديكتاتوريا.. إسلاميا حتى أو علمانيا أو شيوعيًّا.. إننا يا سادة، نؤمن بمبادئ لا نطبقها إلا على نحو المصلحة الخاصة، فقد أصبح الفساد في مجتمعنا فسادا أخلاقيًّا قبل أي شيء، وإذا فسدت الأخلاق، اندثرت الأمم وأصبح البناء صعب في ظل تلك الظروف، فلا بد من العودة إلى الحق الضائع.. وأخيرًا، دعونا ننتظر حكم المحكمة."

"سليم" تعلم لغة الكبار مبكرًا، واستطاع أن يتخلص من أسئلة الصحفيين برد غير شافٍ، أن القضية مازالت أمام ساحة القضاء، بعد دقائق دخل "الحوت" في قفص الاتهام وسط زخم شديد، فنزع الحارس الكلابش من يده وأغلق الباب الحديدي للقفص. اقترب "سليم" منه هامسًا فيأذنيه أن كل شيء سيكون على ما يرام، فأخذ يؤكد على وعده لـسليم بالخير العظيم فور خروجه من القفص. كلمات الحوت كانت دافع

"سليم" إلى فعل أي شيء من أجل الحصول على البراءة، وبعد دقائق من الحديث بينهما، وقف جميع الحضور في حضرة القاضي، وبالفعل استطاع أن يقلب موازين القضية رأسًا على عقب من خلال بعض الثغرات القانونية، فهي لُعبته المفضلة دائماً.

في أثناء جلوسه انتظارًا لمرافعة النيابة، مرَّ أمامه شريط حياته، فأوقفه عند تلك اللافتةالتي قام سابقاً ووضعها في مكتبه، وأخذ يحدث نفسه قائلًا:

- ماذا تفعل يا "سليم".. تلجأ إلى الرشوة من أجل براءة موكلك؟

- وماذا كنت تظن أن أفعل والمجد ينتظر خارج هذه القاعة؟!! ثم أين كنت حين تلطمت بين أروقة المحاكم، ولم أكن أحصل سوى على ملاليم من قضايا المعاشات.. عفوًا أيها الضمير، فما عاد لك عندي شيء؛ اذهب ولا تعد.

لم يكن أمام القاضي سوى أن يحكم بالحق الذي يراه طبقًا لأوراق القضية محل النزاع، مرافعة "سليم" كانت السُلم نحو المجد والشهرة، خرج على إثرها الوزير المستقيل مبرأً، وتوجه قاصدا سُلم الطائرة نحو أوربا بعد أن نال ما أراد من أموال وحرية.

صوت طرق الباب أفزع "سليم" وأعاده مرة أخرى إلى الواقع الذي تمنى أن يعيش فيه وتحقق. أغلقت السكرتيرة الباب خلفها، وتقدمت نحوه في خطوات وئيدة قائلة:

- مخبرك السري بالخارج..

رفع "سليم" طرف حاجبه الأيسر مبتسمًا، ثم عاد يتصفح ما بالملف من معلومات وتحريات، وتوقف فجأة وهو يشير بأصبعه فوق معلومة بدت في غاية الأهمية فصاح قائلًا:

- من أجل هذه المعلومة أدفع له المال.. حقًّا إنه لحاذق في مهنته يؤدي دوره بإتقان، وهذا المطلوب ولا يهمني الآن إن كان مخبرًا يعمل عندي أو يعمل عند غيري، الأهم أنه يثبت دائماً جديته ونشاطه بتقديم المعلومات المطلوبة منه.

دس يده في صدره وأخرج مبلغا من المال، وأردف قائلًا:

- لعل ذلك المبلغ كفيل بأن تعود إلى عظام ظهره الحياة من جديد.

أخذت "سارة" المبلغ المالي في غضب وهي تمتم: "ويل لهذا الرجل؛ يبيع ضميره مقابل حفنة من المال". أغلقت الباب الجرار بعنف كرَدٍّ فعل على تصرفات "سليم" التي كانت دائمًا سببا في نشوب معركة كلامية

بينهما، لكنها سرعان ما تنتهي حين يخبرها سليم أن مصلحة العمل تقتضي ذلك.

ابتسم "سليم" وتابع بعناية قراءة الملف قبل أن يقوم بفتح خزينة مكتبة ووضع بداخلها الأوراق، طرقت "سارة" الباب مرة أخرى فاستدار "سليم" ناحيتها قائلا:

-هل حضر المندوب الروسي بصحبة المترجم وأسامة بن ناصر؟

تسمرت "سارة" للحظة قبل أن تغلق الباب وتتقدم صوب المكتب والابتسامة تغلف وجهها، وما لبثت أن توقفت وانحنت بالقرب منه قائلة:

- كيف عرفت ذلك بحق الجحيم؟

فأجاب وهو يدفع الكرسي للخلف ثم ارتدى سترة البذلة:

- من أجلسني على هذا الكرسي هو من أخبرني..

هنا لم تستطع "سارة" أن تفعل شيئا سوى أن تراجعت إلى الخلف، معلنة استسلامها في تلك المعركة غير المتكافئة..

***

جلس "سليم" في صحبة "أسامة"، يتناقشون فيما تم الاتفاق عليه، وقبل رحيله أشار أنه لن يستطيع أن يكون بصحبته في الحفل الليلي، مما أثار حفيظة "سليم" ومن قبلها محفظته؛ فهو لم يعتد أن يخرج ورقة نقدية

بسهولة، وأدرك أنه على حافة الخطر.. أخذ "سليم" ينسج عدة قصص من خياله دلل بها على غضب "ناصر" إذا لم يحضر "أسامة" تلك السهرة، فما كان منه إلا أن رضخ في نهاية الأمر..

***

في تلك الليلة تواعد "أسامة" على موعد غرامي عند الشاطئ، وفي هذه الفترة توترت العلاقة بينه وبين والمحامي، خاصة بعد أن حضر الأخير جلسة جمعت الابن بأبيه، أعلن "أسامة" خلالها أنه يريد الزواج، فابتسم "ناصر" وغمرت السعادة وجهه، ودار في مخيلته للحظة أنه يريد الزواج من ابنة "سالم" السلحدار رجل الأعمال، وتأكد ذلك لديه حين شاهدهما يوم الحفل الأخير يقفان في ضحك وسرور..

صاح "أسامة" في فزع:

- لا.. لا، ليست هي.

اضطرب "أسامة" وأصابه الخوف، وكأن صخرة صماء من جبال مكة وضعت فوق لسانه، ثم أطلق قذيفة مدوية استقرت في قلب أبيه:

- إنني.. أريد الزواج من ابنة "منتصر" الصياد..

-"بلطية"؟؟

قالها "ناصر" واسمها يدوي كسوط سوداني قرع صوته في أذنيه، قبل أن يمزق جسده ويختلط اللحم بالدم، عمَّ الصمت المكان للحظات، لم يكن يخطر بعقل "ناصر" أن ابنه مازال متعلقا بقرية الكرام بعد أن طابت لهما الحياة. لحظات من الصمت مرت، وعاد "ناصر" يذكره بثروته الطائلة من شركة التصدير ومكاتب الميناء وشركة أسوان للثلج التي قام بتدشينها مؤخراً.

توقف فجأة قائلا:

- كل هذا لم يأتِ من فراغ، بل نتاج جهد وتعب لسنوات وسنوات و..

قاطعه "أسامة" معلناً عن حبه لبلطية، وأنه لن يتنازل عنها مهما كلفه الأمر، ابيض وجه "ناصر" كالموتى، وشعر للحظة أن ما قام بجمعه من أموال يذهب مع الريح، لكنه عاد إلى الحياة مجدداً حين تدخل "سليم" بمكر ودهاء، وأخذ يذكره بمرض جده الأخير، وأنه لم يكن وليد اللحظة، بل كان بفعل فاعل، وهذا الفاعل هو "منتصر" الصياد والد بلطية التي يريد الزواج منها.

في تلك الأثناء، تيقن "أسامة" أنه قد ضاق به ذرعًا، خاصة حين أخذ "ناصر" وسليم يتبادلون صنع الحبكة بعناية:

-المصالح في عالم الأعمال لا تعترف بالحب ولا المشاعر الإنسانية، وإذا أردت أن تملك العالم بين راحة يديك، فما عليك إلا أن تعطي لمشاعرك راحة من أجل النوم، واستعد.. واستعد يا صديقي للخلود سبعة آلاف عام.. فالناس في الحياة يتنافسون من أجل أن يصبح كل منهم سائقًا لقطار النفوذ والمال، وفي ظلال الحرب يصبح كل شيء مباح لك، حتى وإن بات جميع الناس موتى، فالأهم أن تنتصر وتعلوا كلمتك..

ابتسم "ناصر" وهو يهز رأسه قائلا:

-صدقت يا "سليم"، ففي زماننا هذا، عندما تكون الأقوى يخضع لك جميع الناس، وتصبح كلمتك هي العليا، أما إذا غربت الشمس وقلبك مازال ضعيفًا، فلن يكون لك مكان في هذا العالم، فقد تعلمت من الحياة ما لم تتعلمه أنت من مولدك إلى اللحظة، وإن كنت أريدك أن تتزوج من ابنة السلحدار فهذا ليس لكونها جميلة أو من أجل الحب أو ما شابه.. فالحب هو تجربة فاشلة فشل ابن آدم في اختراعها، فأعطاه أهمية كبيرة في حياته، وصار يبحث عنه مادام حيًّا، فلا يوجد شيء على ظهر الحياة اسمه الحب، فهناك شيء أسمى منه في زماننا يدعى.. "المصلحة تقتضي".

***

خرج "أسامة" على إثر ذلك الحديث من القصر، وفتح باب سيارته وجلس أمام عجلة القيادة، وانطلق بها يطوف الشوارع في الليل بلا هدف، حتى أخذته عجلة السيارة إلى الحلم الذي مازال يتعلق بذيله.

استوقفه طفل صغير يقف على السور الفاصل بين البحر والطريق، يمسك بين يديه طرف خيط رفيع، يمتد من الأرض إلى السماء عابرًا كل الحواجز مُزينا في آخره بقلب من قصاصة بلاستيكية، ترفرف في الهواء وهو يتأرجح معها في سعادة..

"إنها تتأرجح في الهواء في حرية مطلقة، كم كنت أتمنى أن أصبح مثلها، كم تمنيت أن يعود بي الزمان إلى الصبا، مثل هذا الطفل غير عابئ بهموم الحياة.. أُرسل قبلات عبر الهواء إلى السماء، وأُغلق عيني وانتظر القمر أن يهديني مثلها.. كم تمنيت أن تقف عجلة الحياة عند العاشرة من عمري.."

كتب جمال في إحدى صفحات مذكراته..

"بريق عينيها الخضراء أسر فؤاده، فما أجمل أن تقع في غرام فتاة لون عينيها أخضر!

حتما ستجد فيهما جنة الفردوس.."

***

وجد نفسه وعجلات سيارته تقوده نحو الفنار القديم، ارتقى السُلم حتى صعد أعلى الفنار وأدار مقبض النافذة بيده ودفعه للخارج، فإذ بنسيم البحر محمل بالذكريات بين ذكرى أول لقاء جمع بينهما وتلك الليلة المشئومة التي راح ضحيتها عبد الله بن حسان.

هبت زوبعة من الشمال الغربي وأخذت السحب الكثيفة تتجمع وتمر في بطء شديد في السماء الحالكة، ثم ألقت فوق الأرض أعاصير من المياه المتدفقة في سرعة مصحوبة بالرياح، فراح الهواء يرفع طرف ثوبها المزركش بألوان الطيف حتى بدت ساقيها البيضاء المكسوة بالشحم القليل، فأخذت تسرع الخطى نحو الفنار.

جميع قاطني القرية احتموا في منازلهم من النوة سوى أسامة الذي كان لديه أمل في العثور على الفتى المفقود، جلس في الفنار بمفرده يتابع تقلبات الأمواج القادمة من بعيد لعله يفلح في العثور عليه تحت ضوء الفنار الخافت، قام بإشعاله أهل القرية قبل أسابيع مضت، ويمضي الليل في رتابة مميتة، كل شيء أوحى إليه بالوحشة، فإما برد شديد وإما رياح تنحني لها الأشجار، الظلام خيم على كل الأركان، والفتى يقف وقلبه يعتصر ألماً على صديقه الذي رحل وتركه وحيداً، وفجأة.. سمع صوت طرقات أقدام على

السُلم، فانتبه من غفلته وألقى طرف عينيه نحو السُلم، فإذ بالرياح تنزع غطاء الرأس عنها، أمسكت بأطرافه قبل أن يهوي من يدها إلى أسفل، رفعت طرف عينيها عندئذ، فارتجف قلب الفتى رجفة شديدة، وكأن شيئًا قد تسلل إلى قلبه في جنح الليل المظلم، توقفت عقارب الساعة وهرولت دقات قلبه إليها، عم الصمت المكان للحظات، حتى أمواج البحر المتصارعة قد سكنت وبات كل شيء يوحي بالهدوء، سوى شيء واحد لم يسكن هو صرير الماء المتساقط من فوق درج السُلم.

هوت قدماها من فوق آخر درجة، فهوى معها قلبه وأسرع يمسك يدها، ويضمها إليه كوضع العناق واضعًا يده على خصرها في وضع متشابك، حتى صعد بها إلى المقعد في منتصف الفنار، بريق عينيها أسر فؤاده، فما أجمل أن تقع في غرام فتاة لون عينيها أخضر! حتماً ستجد فيهما جنة الفردوس. شفتاها ظلت صامتة لم تحرك ساكنا، حتى أطلقت صوت ضحكاتهاالتي تردد صداها بين الجدران، فاستفاق ولسان حاله يتعجب ويقول :"بلطية!"

فأجابت كأنها تسمعه: – نعم، "بلطية".

بدت "بلطية" ليلتها ابنة التاسعة عشر ممشوقة القوام، بادية العناية بنفسها، ارتدت أجمل الثياب المزركشة بالألوان على الرغم من فقر أبيها المدقع..

لم يكن أسامة يصدق ما يحدث من هول المفاجأة، فالفنار مهجور والصخور التي وضعت أمامه ليس بالسهل العبور منها، تقلبات الأمواج والطقس السيء، جعل جميع الأهالي يلزمون منازلهم، كل هذا جعله يشعر وكأنه في حُلم.

أخذت تداعبه بحديثها تحت ضوء الفنار الخافت، فاقترب منها ووضع يده على شعرها الأسود، حتى ربت على كتيفيها واستدار بها إلى الخلف نحو ضوء القمر العابر للنافذة، انعكاس صورته في عينيها جعل شفتاه تتحرك بعد صمت طال، بادلها قُبل حارة في شتاء بارد، أصابهما الدفء، فتراجعت إلى المقعد وجلست، لا ترفع رأسها من الأرض وأحست بسعادة لا توصف، ثم أخذت تطمئنه على صديقه أنه سيعود ما دام يتمسك بالأمل، في تلك الحظة أعلن أنه قد فقد الأمل، كلماته القاسية وجدت طريقًا سريعًا إلى قلبها الحزين، فما كان منها إلا أن أخذت تواسيه قائلة:

- لن تطيب الحياة لمن يعيش بلا أمل.. فاشعل شمعة في جنح الظلام تنير بها طريقك.

للحظة، أحس أنه وجد ضالته في الحياة، فعاد مجددًا ينظر من النافذة تجاه الموج البعيد، ثم التفت وقلبه يدق طبول كطبول الحرب:

- أحبك..

حاول مرارًا أن ينطق في كل مرة كان يشعر بثقل فوق لسانه، وأخيرًا نطق بها؛ أصابها الخجل وأحمر وجهها وترقرق دمع عينيها، وذاب على خدها الوردي، فلم تستطع أن تواصل النظر إليه إلا حين استفاق من أحلامه الوردية، وتذكر أنها بالفعل قد تمت خطبتها منذ أشهر.. لكنها لم تكن لتدع صيدًا ثمينًا كهذا يهرب من يدها، صارت تؤكد له أنها ستفعل كل ما في طاقتها من أجل أن تفسخ الخطبة، لأنها وبكل ما تملك أصبحت ملكًا له..

استفاق "أسامة" من ذكريات أول لقاء بينهما على صوت النادل، وهو يحمل قائمة الطلبات بين يده، رفع رأسه قائلًا:

- لا أريد طعاماً، فقط كأسًا من عصير الليمون بالنعناع الطازج، بينما أمر "سليم" النادل أن يأتي بما لذ وطاب من شراب وطعام، حتى أصبحت الطاولة ممتلئة عن آخرها، تحدث "سليم" كثيراً عن أمر الصفقة المنتظرة، وكأن مستقبله يتوقف على اتمامها، الخواجه انشغل بتمايل جسد "حسنات" على المسرح، وودَّ لو قضى معها تلك الليلة حتى الصباح، وهذا ما تحقق بالفعل بعد ذلك..

***

(٧)

سواحل "إيطاليا" المطلة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.. اخترقت أشعة الشمس الدافئة غيوم السحاب واستقرت على الرمال، اختلط نسيم الهواء النقي بمياه البحر للحظات، ثم أخذ يداعب الأشجار فازداد حفيفها على الشاطئ.

دقت الساعة العاشرة، وأصبح الجو صحواً يسوده الهدوء المشوب بالحذر، بعد دقائق اخترق أزيز طائرة مروحية سماء المنطقة، وراح قائدها يهبط في تؤدة وهدوء، على الرغم من أنه مكان يصعب الهبوط فيه لِمَا يحاط به من أشجار ونخيل مرتفعة. هبطت سيدة بدا عليها الرشاقة، بينما تطاير شعرها الحريري على وجهها بفعل الهواء، فأخذت تنظر حولها كأن عينيها عدسة كاميرا تلتقط منظرا عامًّا للمحيطين بها، بعد لحظات التف حولها عدد من الرجال يحملون السلاح، نزعت النظارة السوداء وحدقت في عين قائدهم قائلة:

- هل وصل جميعهم؟

أجاب في سرعة وكأنه ينتظر أن تتحدث:

- نعم..

أخرج سيجارا رقيقا من صندوق ذهبي في جُعبته، ثم أشعله وسرعان ما أخذت طبقات الدخان تتصاعد إلى السماء، سارت تتقدم فلاحقها أحد الجراء فحملته وجعلت تداعبه، لقد انتظر وصولها على أحر من الجمر، قدمت إليه كثيرا من القبلات الحارة التي عكست الجانب الآخر من شخصيتها وواصلت السير قائلة:

-الأمر لا يحتمل إهدارا للوقت؛ اعتنوا بصديقي حتى انتهي..

***

اكتظت الطاولة بأنواع مختلفة من الأسلحة المتعددة، بعض من الصناديق الحديدية وضعت في زوايا الغرفة، فأشارت إليهم بالجلوس، واستمرت الغرفة مغلقة النوافذ لوقت طويل خلالها أُطفئت أنوار المصابيح لاستخدام وحدة العرض..

صوت طلقات رصاصٍ جعل الحارس الخاص بها يهرول ومن معه إلى الغرفة، أدار مقبس الباب وأخذ يتابعهم بنظرة خوف وترقب، فاستدارت بكرسيها نحو الباب قائلة:

-لا تخف يا فتى.. فقط بعض التجارب على الأسلحة.

فأصابت رصاصة طائشة أحد الخونة:

-هيا احمله إلى الخارج قبل أن تلوث دمائه الفاسدة أرجاء الغرفة.

هز رأسه وتنفس الصعداء، أزاحت بيدها الكرسي الدوار إلى الخلف ثم تقدمت بضع خطوات حيث أحد صناديق الذخيرة المنزوع غطاؤه، بجواره كان المأسوف على حاله، قامت بوضع ما تبقى من كأسها فوق رأسه قائلة:

-في لعبة الموت، منذ قديم الزمان، دائما ما يكون الخطأ الأول هو الأخير، فلا وقت لتصحيح الأخطاء.

***

حمل جثته إلى الخارج، وأصدر أمره للحارسَيْن أن يحملاه إلى مقره الأخير، وبدأ يترجل واضعًا يده في وضع متشابك خلف ظهره، أسئلة عديدة أخذت تتصارع مثل الثعابين في رأسه، ولا إجابة شافية..

-كيف ستكون نهايتك يا "جاكوب"؟

لا يوجد إنسان بلا أخطاء فماذا أفعل؟

خرج ولسان حاله يقول: "لا مفر من الموت".

ساد الغرفة هدوء مشوب بالحذر، كلٌّ يفكر مراراً وتكراراً قبل أن ينطق بكلمة، وعاد أحدهم ليدير جهاز العرض حتى أمرته بالتوقف عن تمرير الصور لحظة عرضه خريطة دول شمال إفريقيا.. استدعت انتباههم في تلك الأثناء، وأخذت تؤكد أن المنظمة تمر بظروف عصيبة، حلم اليهود

الأكبر يتعرض للضياع، يجب التصدي لكل من يقف أمام الحُلم.. عمَّ الصمت الغرفة للحظات، بعد أن أشارت لهم أن يشربوا نخب حلمهم الأعظم، ثم عادت تشير إلى أحد أهم الأهداف التي يجب السعي لتحقيقها في الفترة القادمة..

- هدفنا يا رجال تدمير الشباب؛ لأن الأمم تُبنى من سواعدهم، ولذلك يجب أن نجعل من نشأتهم فتيانًا لا يفقهون شيئاً في دينهم بادئ الأمر.

ثانيًا: احرصوا جميعا على أن نبث في روحهم كراهية الأديان، أشعلوا نار الفتنة الطائفية بينهم، اجعلوها ناراً تحرقهم.. حينها أعدكم يا أصدقاء أن القادم سيكون ممتعا ولذيذا، لقد أصبح لدينا في ظهرهم شوكة كبيرة، إنه الشيطان الأكبر الذي تراه أعينكم الآن إنه.. السيد "ناصر"، رجل يحب المال ويعشقه، لقد استولى سابقا على أموال إخوته بمساعدة أحد أباليس الإنس.. محامٍ يدعى "سليم"، وسيكون هو الآخر عوناً لنا إذا سقط "ناصر"..

اعتدل أحدهم على كرسيه وقطب حاجبيه وهو يشير إلى الخريطة بسبابة يده قائلا: - لماذا مصر؟

أجابت في علياء: - لأنها الكنز..

كتب جمال في إحدى صفحات مذكراته..

"للحياة وجهان؛ أحدهما حامض كالليمون، لذلك كن يا صديقي على استعداد أن تواجه مرارتها بابتسامة خالصة.."

(٨)

ريم..

صاحبة القلب الملائكي الأخضر، أصبحت زهرة تشرف على الهلاك عطشًا.. تبحث عن سبيل للنجاة بعد أن علمت أنها تحمل بين أحشائها جنينًا كان السبب في وجوده "سليم"، ظلت تبحث عنه فور علمها لكنها لم تعثر عليه.. لقد تركت عملها وجلست تنتظره على أبواب المحاكم، كانت تعود بخفي حنين دون فائدة تذكر.. سلوتها ابنة عمها "أماني" صاحبة القلب الحنون صديقة العمر، والحياة بلا صديق يؤنس وحدتك لا تكون حياة.

-لقد أصبحت الحياة بلا طعم ولا لون، إني أحترق من داخلي وخوفي الأكبر أن يعلم أبى بما حدث، حينها تكون الفاجعة؛ سيسقط مغشيًّا عليه كالموتى، أخشى ذلك..

أخذت "أماني" تبث في روحها الأمل من جديد، تقوي من عزيمتها لكن دون جدوى، فقلب صديقتها أصبح الجرح فيه ينزف كل لحظة، هي في بكاء مستمر..

– لقد استطاع أن يخدعني بمكر الثعالب بعد أن اعتقدت أن السماء قد أرسلته لينقذني من أيدي أولئك الجبناء..

انهارت مغشيًّا عليها ثم استفاقت بعدها بدقائق بمساعدة صديقتها، أخذت "أماني"، صاحبة عقل الميزان، تلطف الأمور قليلا بالحديث عن أمور تخص العمل، لكن "ريم" كان وما زال شُغلُها الشاغل هو العثور على الثعلب الهارب، فلم تجد مناصا إلا للعودة لحديثهما السابق قائلة:

–إن كان ولابد، فيجب أن نبحث عنه في كل مكان، لكن بمفردنا لن نستطيع فعل شيء.

– لقد راودتني فكرة ما في الليلة السابقة، وددت لو قمت بطرحها عليك..

اكتفت "ريم" بهز رأسها فواصلت صديقتها قائلة:

– لابد أن يشاركنا هذا الأمر شخص محل ثقة كي نستطيع أن نعثر عليه.

صاحت "ريم" وهي تلوِّح بيدها في توتر أنه إن حدث هذا ستكون الفضيحة على الملأ، حاولت معها بشتى الطرق، لكن الجميلة التعيسة لم تستجب لها مخافة أن يُفضَح أمرها.. مرت دقائق من الصمت قبل أن تتحدث "أماني"" قائلة:

– وجدتها..

أخذت تذكرها بأمر الفتاة التي تعرضت لحالة تسمم قبل شهرين، وأنها الوحيدة التي باستطاعتها المساعدة، فانتاب الخوف قلب "ريم"، واقتربت من الشرفة في تؤدة والصمت سمتها، في تلك الأثناء قفز في عقل "ريم" فكرة الخلاص، مما يعكر عليها صفو حياتها؛ مما جعل صديقتها تغضب وتحذرها من فعل هذا الأمر، فقطع حديثهما جرس الهاتف فأمسكت "أماني" السماعة، وبعد أن أنهت المكالمة عادت لتخبرها أن خطيبها ينتظرهما في السيارة.

***

توجهت "ريم" إلى حيث تنظرها صديقتها خارج المستشفى، وهي تردد كلمات بائع التذاكر الذي لاحظ تغير وجهها عن قبل فاستوقفها قائلا: "ما خاب من أودع الله شتات أمره"، وكأن القدر قد ساقه لها، حتى انتبهت لحديث خطيب صديقتها وهو يوجه لها عتابًا رقيقًا، فأخبرته أن اليوم يوافق ذكرى وفاة والدتها، فيالحقيقة لم تكن تكذب، فتعجب قائلًا لها:

- أما يكفي مرور كل تلك السنوت حتى ينتهي هذا الحزن؟

تنهدت وهي تلقي بصرها خارج السيارة قائلة:

- أتعرف معنى الفراق؟

أجاب منزعجًا:

- لا.. لم يعرف قلبي هويته يوماً، ولم يسبق له أن قام بزيارتي.

فأجابت والدمع يرافقها:

- إن الفراق... هو احتضار الروح، هو أشد العذاب إيلاما لأي مخلوق على وجه الأرض، إنسان كان أو حيوان فلا فرق، فكيف الحال برحيل أقرب الناس إلى قلبي وهي أمي، فبعد موتها ما عادت الحياة حياة، ذلك هو الفراق الذي لا يعوض؛ فالأم هي الحنان.. الرحمة.. المودة.. العطف.. هي الأنيس والجليس، هي الضحكة وشهد الحياة، هي الوردة والعطر والياسمين، هي الماء والهواء..

لم تستطع أن تكمل وسط حصار من الدمع والذي شاركتها فيه صديقتها، الصمت لازمهم لثوانٍ حتى قطعه صوت القطار، توقفت السيارة أمام المزلقان، فاستغل "أحمد" تلك الدقائق في إشعال إحدى الأعمدة البيضاء خارج السيارة، وبعد أن رحل القطار رحل معه الصمت الذي لازم السيارة، بعدها استطاع بفضل حنكته وذكائه أن يجعل الحديث شائقا ماتعًا طيلة الطريق، حتى لفت انتباهه أحد الإعلانات على لافتة، كتب عليها إعلان للمستشفى الخاص به، فأخرج علبة السجائر من قميصه وراح يشعل عمودا آخر، بينما بنات العم كانا في شغل عنه بحديث جانبي.

***

اقتربت الشمس من الرحيل، فجلس على الشاطئ يتابعها وهي تتلصص من خلف الغيوم.. لطالما تمنى أن يرحل مع إحدى السفن العابرة للميناء كما ترحل الشمس، لكن هناك ما يتعلق في قدميه..

- سيدتي، هل تأذني لي بالحديث؟

- تفضل "جاكوب"؛ فأنت مساعدي وكاتم الأسرار الخاص بالمنظمة، أنسيت يا فتى أنه لولاك لما صمدت المنظمة طيلة هذه السنوات، وبصفة خاصة عندما تعرض والدي ووالدك لحادث اغتيال من قبل العرب أبناء فلسطين الملاعين..

- لماذا مصر؟

- عزيزي "جاكوب".. الصراع القادم سيكون من أجل البقاء، صراع من أجل السيطرة على الموارد حتى في الفضاء، هدفنا الأسمى تعرفه جيداً؛ لذلك ستحين الفرصة قريباً لنبدأ جولة جديدة حين ينشأ خلاف بين العرب، وحتمًا سيؤدي إلى قيام حرب بينهم وهذا ما نريده.

***

مرت ساعات النهار على قرية "ميت شبر" دون جديد، هبت نسائم الليل، كل شيء في أول الليلة سار على ما يرام حتى انتهوا جميعًا من تناول الطعام، جلس "أحمد" في المضيفة بجوار المهندس "نبيل المعداوي" والد "أماني"، أمامهما جلس الحاج "سمير المعداوي" يدخن النارجيلة، حديثهم لم يخلُ من الضحك والفكاهة، المهندس "نبيل" يتمتع بشخصية مرحة يعشقها أهل القرية، في جعبته كثيرٌ من النكات التي ينتظر سماعها جميع الناس.. طرق باب المضيفة بعضٌ من الشباب وأهالي القرية بعد صلاة العشاء في مقدمتهم العمدة "رحيم"، ونائبه شيخ البلد "مبروك"، وكبير أعيان القرية الحاج "وافي". قدموا، فأصبحت المضيفة تعج بالحضور من شباب وشيوخ القرية الذين أخذوا يتواترون الواحد تلو الأخر، فلم تكف صيحات السلام، وزاد الصخب، وما بين فينة وأخرى يأمر الحاج "أحمد" الخدم بتقديم ما لذ وطاب من الفاكهة والمشروبات.

جمعتهم ضحكات السخرية من حديث بعض الشباب تارة، ولزمهم الصمت حين تحدث العمدة "رحيم" عن إهدار فلاحي غرب القرية للماء بكثرة في أثناء سُقيا أراضيهم، فاقترح على الحضور أن يتم شق قناة تهبط فيها المياه الزائدة عن حاجة الأرض، ثم يتم تخزينها لحين الاحتياج إليها في أيام نقصان الماء في الترعة.

تبادلوا فيما بعد أطراف الحديث، حتى تحدث المهندس "نبيل" عن الهدوء الذي باتت تعيش فيه القرية بعد أن رحلت الراقصة "حسنات" ربة الصون والعفاف على حد قوله تهكمًا، في تلك الأثناء دخل "منصور" الخادم يحمل بين يديه الفاكهة بأنواعها، تبعته زوجته "صفية" ذات الجسد المائل للبدانة، وضعت ما في يدها ثم رحلت، بينما طاف زوجها على الحضور يقدم إليهم أطباق الفاكهة وكعادته أخذ يضع الرتوش الخاصة به، ويتدخل فيما لا يعنيه على حد وصف الحاج "سمير المعداوي"، دائما ما يقول له "من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه"، لكن منصور الذي اعتلى الشيب أُم رأسه لم يدع الفرصة تذهب سدى، خاصة أنه أحد عشاق "حسنات" وحزن كثيراً لهجرتها من القرية .

- كانت الملاذ لكل رجل ضاق به الحال من هموم الحياة.. أه أه من تلك المرأة، ليتها ما هجرتنا.

أخذوا جميعا ينظرون لبعضهم بعضًا ثم غمرتهم الضحكات، وازدادت حين أمسك الحاج "أحمد" ثمرة فاكهة وألقاها إلى رأسه ليتلقاها كلاعب كرة اليد، ثم أخذ يهرول إلى الداخل بينما الحضور في ضحك غير منقطع وكأن الضحك لم يزرهم من قبل..

منذ القدم، وسلوة أهل القرية تجمعهم كل خميس في مضيفة كبير القرية الحاج "أحمد" نظرا لاتساعها.. هو كبير القرية وصاحب المشورة إليه يلجأ جميع الناس للفصل في كل شيء، ويجتمعون عنده كل خميس، وفي الأعياد والمناسبات، عنده يجدون سلوتهم من الهموم، يجلس الكبار والمشايخ بجوار بعضهم بعضا بينما يجلس الشباب أمامهم في تواضع واحترام تجمعهم الضحكات والآهات..

اعتدل "إسماعيل القصاص" في جلسته بعد ضحك مستمر قائلا:

- لعله خير.. لعله خير؛ فانشراح القلب يأتي بعده متاعب كثيرة.

"القصاص" بات في قدميه دروبا ومسالكَ تُعد مخبأ جيدا لفئران الحقل، منذ أن شب على وجه الحياة وجد نفسه وحيداً يتيم الأب، والأب كالوتد للخيمة؛ فاسرق من العمر لحظة واركع بين أقدامه لعلها تكون هي لحظة النهاية، وبعدها لن تجد سوى السراب في دنيا السراب..

-وهل أصبح حتميا علينا أن نضحك، ثم يسرع الحزن خُطاه عدوًا ويقف على أبواب قلوبنا، وكأن الضحك قد أصبح شيئا ثانويًّا يزورنا كالأعياد؟

-هذه الحقيقة يا ابن أخي، فلو تأملنا في حياتنا، ماضينا قبل حاضرنا، ستجد كل شيء يتعاقب؛ الشروق يعقبه الغروب، والليل يتبعه نهار.. وحين يولد الطفل يبكي، وحين يموت تبكي الناس عليه، تلك الحقيقة، البكاء والحزن وجهان لعملة واحدة.. أما السعادة فهي شيء ثانوي يزورنا كالأعياد.

- لكل معركة نهاية.. فائز ومهزوم يا عم إسماعيل! فمتى تتحقق السعادة إذن؟ قالها مستفهما من ابن أخيه "عمار القصاص"، فأجابه أن السعادة المطلقة تتحقق حين يلتقي الأحبة في جنة الخلد..

- ولماذا لا تكون سعادتنا في الدنيا دائمة بغض النظر عن دخولنا الجنة؟ ففي الآخرة من يدري؟ فقد لا ندخلها، وهنا لا نفوز بالسعادة أبداً، إني أرى أن نغتنم كل فرصة في الحياة كي نحياها في سعادة، لأن من يرحل لن يعود، فكفانا حزنًا على الماضي وخوفا من المستقبل.. صدقني يا عم، إذا دققنا النظر جيدا لأدركنا أنه لا يخلو شهر من شهور العام من ضحكة واحدة، أقصد من عيد واحد، وما أكثرها في مصر، فلماذا نحزن إذن وفي كل شهر عيد؟!

قطب "إسماعيل" حاجبيه وبرزت عروق جبهته، ولم يستطع أن يرد على حديث ابن أخيه الفتى الشاب صاحب العشرين عاماً المغرم بآراء الفلاسفة الغربيين، فاستغل الدكتور "أحمد" الفرصة وأخذ يؤمن على حديث "عمار" وعمه القصاص قائلًا:

-هنيئًا لنا جميعا؛ ففي قريتنا بيت للفلاسفة، إنه بيت الحكمة كما يقولون، وبه مذهبان؛ أحدهما يؤمن أن الحياة سرمدية أزلية يغلبها الحزن والبكاء.. والآخر يؤمن بأننا خلقنا لنعيش الحياة كل لحظة بحلوها قبل مرها، وأنا أميل لذلك الرأي، فما خلقنا في الحياة لنعيش في كآبة وحزن طيلة الوقت انتظاراً لجنة في آخر الزمان قد لا ندخلها..

كثرت الهمهمات بين الحضور وتبادلوا جميعًا أطراف الحديث حتى حدثت الفاجعة التي بدلت أفراحهم أحزاناً، وصدق قول "إسماعيل": "السعادة شيء مؤقت".

(٩)

هنا سموحة.. موطن الأغنياء قديماً.. على أرضها شُيِّد قصر البرنس حسين إسماعيل، ابن الأميرة فوزية أخت الملك فاروق.. رونقها الحضاري وتراثها المميز هو ما جعل "ناصر" يقوم بتشييد قصره هنا، على أنقاض منزل منهار.

جلس الشيخ صاحب الستين عام فوق أنقاض منزله المتهدم، عيناه تروحان وتجيئان بين الأنقاض، يفتش عن الذكريات في صورة أخذ يزيل عنها غبار الأتربة، يبحث عن ستين عام قضاها هنا، يبحث عن رفيقة العمر، تلك الزوجة التي قدمت إليه كل شيء ولم تبخل عليه يوما بابتسامة في سبيل تحقيق سعادته، لم تستطع أن تنجب له ولدًا يحمل اسمه طيلة سنوات الكفاح، ومرت عليه الأيام كسنوات يوسف الصديق وهو صابر محتسب، كثيرًا ما ذهبا إلى الأطباء، لكنهما كانا يعودان بلا أية فائدة.. "ليس لكما دواء عند الأطباء، لأن من خلق الأطباء هو الذي بيده كل شيء". هكذا قال لهما الطبيب في آخر زيارة منذ سبعة عشر عاما، بعدها تعاهدا على أن يعيش كل منهما من أجل الآخر، جلس صابر يتذكر آخر عهد له معها، نصف ساعة مرت دون العثور على الجميلة "صابرين"، في تلك الأثناء،

توقفت سيارة فخمة ماركة مرسيدس، تتبعها سيارة أخرى سوداء اللون، هبط منها السائق وقام بفتح الباب، نزل رجل ذو هيئة حسنة يرتدي بذلته السوداء وعباءة مزركشة زادته وقارا وإجلالًا، يحمل في يده مسبحة خضراء من الكريستال الخالص، ما إن شاهده موظفو الحي حتى أسرعوا الخطى مهللين، ألقوا عليه التحية فاكتفى بتحريك شفتيه، وتقدم نحو الشيخ يقدم له التعازي. عاود "ناصر" إلقاء السلام مرة أخرى، لكن الشيخ لم ينتبه، فأكمل موظف الحي الحديث أن شقة فاخرة ومبلغ من المال ينتظره بشرط أن يتنازل عن قطعة الأرض، وبعد حصار من قبل الموظف، فلم يجد الرجل مفرًّا من النزول على رغبتهم.

"صابرين" رحلت، وأمنيتها أن يكون آخر موعد لها في الحياة بين جدران المنزل، وتحققت أمنيتها، فكان اللقاء الأخير، فيا ليت كل أمانينا تتحقق كما نشاء.. أشار "ناصر" وهو يغادر المكان لموظف الحي أن يذهب لمكتب "سليم" ليجد مكافأته التي سبق ووعده بها، ولم تكن هي الأولى من نوعها، بل سبقها العديد، لم يتأخر الرجل عن الذهاب إلى مكتب المحامي، في السابق كان يأخذ مقابل إنجازه أعمال "ناصر" على الفور، لكن مؤخراً أصبح " ناصر" يؤثر أن يبعد الشُبهة عنه..

***

فتح الموظف باب سيارته، وجلس إلى عجلة القيادة وانطلق مسرعا كي ينال نصيبه، ووصل بالفعل إلى مكتب سليم، فأخذ يقوم بالاستفسار عن الطابق الذي يقع به المكتب من حارس العقار الزول "بكار"، هكذا كان يطلق عليه..

- من فضلك، مكتب سليم عبد الرحمن المحامي؟

استيقظ الحارس من نومه وبدا وكأنه لم يذق طعم النوم منذ أسبوع، فأخذ يحدق في عينيه وهو يقول:

- ماذا تريد؟

تأفف الرجل قبل أن يعيد السؤال مرة أخرى، وقبل أن يكمل حديثه استوقفه بكار قائلًا:

- بالله تعرف أنى نائمٌ فكيف تسألني؟

- المعذرة..

-المعذرة.. المعذرة.. المعذرة أنت ثرثار يا رجل، أنا لم أنم منذ..

وقبل أن يسترسل في حديثه صاح الموظف:

- توقف عن سرد قصة حياتك التي لا دخل لي بها واخبرني عن مكتب ابن "الهرمة ".

فأجاب أخيرًا بعد أن أرهقه صعودًا أنه في الطابق الرابع الشقة السادسة، وأغشي عليه ثانية في نوم عميق، وبعد نصف ساعة من الانتظار في مكتب سليم، هبط بالمصعد وأوراق البنكنوت في جعبته، وما إن اجتاز باب العقار ووجد "بكار" مازال نائمًا، اقترب منه ببطء، وما لبث أن قام بوضع أصبع يده في جانب الرجل الذي استفاق منزعجًا وهو يقفز على قدميه قائلًا:

-اركب الهواء..

"بكار" ركب الهواء، بينما تركه الموظف ليركب سيارته والسعادة تغمر قلبه..

"أولادي تزداد أعمارهم يوماً بعد يوم؛ هذا المال هم في احتياج إليه.."

هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه غارقًا في دمائه، وأوراق البنكنوت تتطاير في الهواء فوق رأسه إثر اصطدامه بسيارة مسرعة..

كتب جمال في إحدى الصفحات..

"في الإسكندرية، يمر عام بعد عام يتغير التاريخ والأيام،
لكن تبقى الإسكندرية عروس جميل يحلم بها كل البشر"

كنت أظن أنه يبالغ في ذلك، لكنه صدق في حديثه..

(١٠)

مر عام ..

رحل ناصر عن القرية وسكن قصره الجديد، فياليل يهجر المضاجع وفي النهار يقوم بعقد الصفقات أملًا في تحقيق حلمه الذي يسعى إليه.. تبدلت ملامح وجه التي ازدادت قوة وصرامة عن قبل، فالابتسامة أصبحت لا تعرف له سبيلًا وهو لا يعرفها، أو بالأحرى لا يريد معرفتها، وإن أتت إليه يومًا، جاءت كالضيف، تلك هي حياته بعد مرور عام على وفاة أبيه.

كذب من قال يومًا أن السعادة تسكن قصور الأغنياء، فإن كان على وجه الأرض غنيًّا فجميع الناس بعد الله فقراء، إنما السعادة تسكن قلبا خاليَ البال.. السعادة تجدها يا صديقي دائمًا وبكثرة عند الفقراء، إنهم لا يرجون شيئا من الحياة، سوى أن يناموا وقلبهم خالٍ من الحقد والضغينة على أحد، حتى إذا داهمهم الموت بوحشته رحلوا مطمئنين معه..

مضيفة الكرام تصدعت جدرانها مؤخرًا، الأمر الذي أفزع "ربيع"، وجعله يقوم بعمل ترميم لها بوضع صورة المرحوم "عبد القادر"، لكنها لم

تكن كافية، فاستعان بصورة الشيخ الشعراوي، وبالفعل استطاع أن يغلق ولو مؤقتا ذلك التصدع..

***

استيقظ "عادل" من النوم، وجلس يتأوه على سريره، وما لبث أن فتح باب غرفته الواقعة في منتصف البيت.. منزل "عبد القادر" متعدد الغرف، فحين شيده قديمًا كان يظن أن أولاده سيعمرونه من بعده، فرحل ورحل من قبله عبد الله بن حسان، ثم غادر ناصر وولده وزوجته قبل أن تتوفى مع أول يوم من دخولهم القصر، فباتت الذكريات بمفردها طيلة الليالي تبكي فوق أطلال الراحلين..

خرج ناحية الباب الكبير، فاستقبل نسيم البحر بصدر رحب، ثم أخرج زفيرًا بعد أن ملأ رئتيه بنسيم البحر، فسمع صوتا لتلاوة "القرآن الكريم" قادمة من المضيفة، أخذ يتقدم صوبها، توقف أمام والدته وألقى عليها تحية الصباح مصحوبة بتقبيل جبينها ويديها، تركها مبتسمًا وما إن وصل إلى المضيفة حتى طرق الباب وتنحنح قبل الدخول، تلك العادة التي ورثها عن جده.. "ليته ما ورث عنه شيئا"، هكذا كانت تقول أمه. ألقى على عمه تحية الصباح، فردها عليه وأعقب بالمباركات لحلول عيد الفطر المبارك، اكتفى "حسان" بما تلاه من ورد الصباح، ثم قبَّل المصحف

ووضعه بجواره وأمسك مسبحته، وتنهد بصوت ينم عن الحزن، فلقد تذكر لتوه أن عادل حين ألقى عليه السلام ناداه أبي عبد الله؛ فتذكر ولده الغريق وترحم عليه، بعد وقت قصير تمالك الشيخ نفسه، وأخذ يسأل عن أخيه "ربيع"، فداهم "عادل" إرث جده وهو التعصب للحق فأجابه قائلًا:

- متى تذهبان إلى عمي كي تطلبا ميراثكما الذي سلبه دون حق؟

هز حسان رأسه وضم شفتيه بقوة ثم قبض بيده على المسبحة الخضراء وهو يتمتم: "يبدو أننا لم ننتهِ من هذا العراك بعد"، ثم صاح يؤكد من جديد أن التركة كُتبت باسم زوجة عمه "ناصر"، وهذا ما تم الاطلاع عليه من قبل المحامي.

"عادل" لم يقتنع بحديث عمه، فأخذ يصب غضبه على "ناصر" الذي يعيش في سعادة ليلًا ونهارًا، الأمر الذي لم يرضِ "حسان"، فقال وهو يخرج من باب المضيفة:

- ليس أمامنا سوى حكم القضاء، وإني لا أثق فيه كثيرًا، فهو مضيعة للوقت والمال الذي سيحصل عليه المحامي.

مط "عادل" شفتيه ثم هز رأسه، وأخذ يتذكر ذكريات الماضي، وكيف كانت المضيفة في عهد جده عامرة بالزوار وطالبي الحاجة الذين كانوا لا يكفون عن زيارة جده ليل نهار، والحال الآن بعد أن اتجه بعضهم

للسفر إلى دول الخليج، وبعضهم للعمل في الميناء التي قامت الدولة بتوسعته لاحقًا.

***

اقترب قرص الشمس ناحية الغروب، خرج "عادل" يتلمس خطاه على الشاطئ، يستنشق عبير البحر بعد أن ضاقت عليه نفسه، منذ تخرجه لم يعمل، حتى قام أحد أصدقاء جده بإيعاز من "حسان" بالتوسط، ودفع مبلغا من المال لوكيل مديرية التربية والتعليم للموافقة على تعيينه.

سار على الشاطئ يهيم بخياله، يحدث البحر لكن لا إجابة شافية لما يختلج صدره، شعر بيد تلامس رأسه فانتفض كأنه في غفلة، ونظر خلفه فإذ بها تقول في رقة ودلال:

- أتأذن لي بالجلوس جوارك؟

فأجاب مبتسما:

- وهل يطلب القمر إذنًا حين يجاور النجوم؟

يعرف جيداً كيف يصل إلى قلبها بحديث برع وتميز فيه، إنه يختار الكلمات بعناية ويلعب على الوتر الحساس لديها، يعزف بكلماته ألحانًا تتصارع للوصول إلى قلبها، وحواء لغز كبير لن تستطيع الوصول إلى مفتاحه دون المرور بعدة خطوات، أولها أن تشعرها بأنوثتها، وثانيها الكلمة

الطيبة.. وهكذا فعل، فابتسمت وهي تمرر أصبع يدها في شعرها وترسله إلى الخلف قائلة:

- ما هذا أيها الفيلسوف العظيم؟!

ابتسم وهو يردد اسمها بين شفتيه.. أحس بلذة كأنه عسل ذو مذاق.

فأجابته بصوتها العذب:

- حبيبي.

أغمض عينيه للحظات وهو يقول:

- لا أريد من الدنيا متاعًا غيرك، ففي الأفلام تكون النهاية سعيدة بزواج الأحبة مهما تعددت العوائق أما في حالتنا هذه.. فلا أدري كيف ستكون النهاية!

- مهما يكن، سنبقى سوياً ولن نفترق، إنني أعرف أن الأمر خطير، دينك غير ديني، لكن الدين لم يكن يوماً عائقًا في سبيل الحب.

- بالفعل إن الدين....

فجأة، توقف عن الحديث وتذكر أنه لم يسألها عن سبب حضورها المفاجئ، وكيف علمت مكانه؟

تلعثمت شفتاها الصغيرتان التي تشبهان اللوز، وارتسمت ابتسامة على وجهها ثم عادت تخبره أن قلبها المسكين هو من أخبرها، وأخذت تسرد

له تفاصيل أشياء قام بها في المدرسة مع زملائه وزميلاته، وكذلك الطالبات، كلُّ ضحكة أين ومتى كانت.. ذلك اليوم الذي ذهب للمدرسة فيه وكان مزكومًا، ذكرت له كل شيء وكأن من كان يراقبه مخبر محترف يعمل منذ زمن بعيد وأتقن عمله حد الإتقان. انتابته الحيرة، فأخذ يسأل عن ماهية رسول الغرام الذي سخَّر كل وقته ليعدَّ عليه أنفاسه ويراقب تصرفاته حتى أدقها، لكنها أبت أن تجيب، فأطبق بأسنانه على شفتيه في غيظ بينما ملأت الابتسامة وجهها. "جنس حواء جميعهن يتشابهن في كل شيء، سوى "مريم"، تنفرد عن غيرها، فابتسامة "مريم" لها طعمٌ ومذاق، جميعنا سمعنا عن الفردوس، لكن هل سبق لك وشاهدتها؟ بالطبع لا.. لكني أقسم لك أني شاهدتها، فالفردوس هي مريم."

بتلك الكلمات صار يحدث نفسه..

- عمل عظيم أوليس كذلك؟ قالتها وهي تحاول أن تتفادى الهواء وتلقي بشعرها الذي وصل أسفل خصرها من الخلف.

فأجاب والحيرةُ تقتله:

- بلى.. بلى، عظيم يا حبيبتي..

أطلقت ضحكة دوت كصوت الكروان في الفجر، تلك جعلت قلبه يطرب فرحًا، ثم أخذت حفنة من الرمال، وبدت وكأنها تريد ممارسة عادتها

القديمة في بناء قصر على الرمال، تركها لتمارس لُعبتها، ونهض لُيحضر آلة الصيد والتي يضعها دائمًا في مركب جده القديم، هذا المركب المتهالك الذي بات في حالة يرثى لها، وبقي أثرًا لا يحمل سوى اسم صاحبه. سادت دقائق من الصمت بينهما حتى قطعه الحديث عن زيارة عمه "حسان" لمنزلها المتواضع لتقديم التهنئة بعيد ميلاد السيد "المسيح"، فأخذت تعاتبه على عدم الحضور معه ثم استدركت قائلة:

- كان يبدو على وجهه الغضب، إنني أعرف ذلك بسهولة، فعائلة "عبدالقادر" حين يغضبون تنتفخ العروق في جبتهم..

تلقى "عادل" دفعة من عبير البحر قبل أن يخبرها أنه كان في سبيل الذهاب معه، لولا ما حدث وعكر صفو يومه، فزعت "مريم" من حديثه وتركت ما بيدها واستدارت ناحيته قائلة:

- هل تحدثت مع عمك في أمر الميراث والتركة؟

هز رأسه بالإيجاب، فحاولت أن تهدئ من غضبه الذي بدا عليه، مؤكدة أن أمر التركة قد انتهى يوم أن كتب جده التركة لزوجة عمه، سكتت قليلًا وعادت تبتسم وهي تمازحه أن يقوم بمساعدتها في بناء القصر ليكون نبتة لبيت الزوجية القادم. وضع عادل آلة الصيد على طرف المركب، بعد أن قام بتثبيتها بأحد الأحجار حتى لا تهوى في الماء، وأخذ يشيد معها القصر

الصغير، مرت دقائق من الصمت ثم توقفت فجأة بعد أن سقط الدمع من عينيها، لم ينتبه إلا حينما تراجعت للخلف، ووضعت طرف إصبعها تزيل آثار الدمع الذي أخذ يتوالى كدفعات المطر المتساقطة من السماء. راحت تبتعد عنه فأسرع ناحيتها واحتضنها بين ذراعيه محاولًا أن يستفهم عن سبب حزنها ودمعها الذي يتقاطر. لحظات وتمالكت نفسها من جديد، ثم أخذت تحدثه عن الأيام الماضية التي لم تستطع أن تراه فيها، وما حدث بينها وبين والدها من شجار بعد أن تقدم لها شاب ذو مركز مرموق يعمل في ديوان عام المحافظة، وكالعادة رفضته بحُجة أنها مازالت صغيرة، لكن حُجتها هذه المرة لم تُقنع والدها بالقدر الكافي.

-لا حل غير الزواج..

- الزواج؟ أنت حالم يا "عادل".

- وماذا يملك الإنسان في الحياة غير أحلامه؟

"مريم"، البنت الجميلة، ذلك الملاك الذي يمشي على الأرض على حد وصف "عادل" عشقته حد العشق، لا تتخيل حياتها بدونه، لكنها تخاف من المستقبل، لذلك وصفت زواجهما بالقصر الذي تشيده على الرمال أنه هش مع اقتراب أول موجة يتهاوى، انفعل "عادل" وعاد يذكرها أنه من الأولى أن يُهدم قصر الخرافات والتقاليد العمياء، وكأنه يقصد حديث

الناس الذي لا يأتي بفائدة، أخذ يبث فيها روح الطمأنينة من جديد، وأنه على استعداد أن يذهب بها إلى آخر العالم كي يحميها من نظرات وحديث أهل الكرام، ونسي للحظة تلك المعركة التي بينه وبين عمه "ناصر". ربت على كتفيها وهو يبتسم في محاولة منه لإدخال الطمأنينة إلى قلبها، ثم أمسك يدها، وألقى كل منهما ظهره فوق الرمال، وأعينهما تراقب غروب الشمس بعد أن برز لونها الوردي من بين السحاب في منظر يأسر الأفئدة ويسحر الألباب، وراح كل منهما يفكر في مصيره المحتوم، وكأن شيئا ما يربط بينهما برباط به ألف عقدة وعقدة، رباط ليس له نهاية.. "عادل" يعيش بخياله مع النجوم التي بدت تلمع في السماء، بينما هي راحت تفكر في مصير من سبقوها إلى ذلك الطريق.

***

إشراقة شمس يوم جديد، استيقظ "ربيع" من نومه في السابعة صباحًا، كعادته يوم وقفة العيد يخرج لتوزيع زكاة الفطر على فقراء الكرام، توجه إلى المضيفة، فوجد حسان جالسًا ممسكًا مسبحته، ألقى عليه السلام وأعقب بالتهاني بحلول العيد، جلس الأخوان ما بين ممسك مسبحته وآخر يتأمل التصدع في الجدار الذي راح يتمدد من جديد، حتى قطع عليهما دقائق الصمت صوت أحد الفقراء، فخرج إليه "ربيع" ليعطيه مسألته،

وما إن عاد أخذ يسأل عن أمر القضية، فأجابه "حسان" أن المحامي لم يتواصل معه منذ شهر تقريباً وأردف قائلًا:

- القضايا في بلدنا تأخذ وقتا طويلا، ونحن أمام خصم قوي يعضد موقفه بمحامٍ يشبه إبليس في أفكاره وحيله.

التقط "ربيع" مسبحة أخيه، ثم راح يتمتم بعض الأذكار قبل أن يقطع عليه ذلك حديث أخيه عن علاقة "عادل" بابنة "رمزي"..

- ماذا تقول؟ ردد ما ذكرت ثانية يا أخي!

فأخبره أن "أكلاشيه" هو من قال له ذلك، تراجع "ربيع" للخلف بعد أن وصف "أكلاشيه" بالمعتوه الذي لا يؤمن على حديثه أحد، والكرام جميعها تعلم ذلك، والأولاد بالقرية يزجونه بالأحجار كلما وجدوه أمامهم، فكيف يتم تصديقه؟!

"حسان" رفع سبابة يده اليمنى نحو أخيه وهو يقسم يمين طلاق أن حديث المعتوه إن كان صدقا، ستصبح الكرام خرابا، لم ينس ما حدث لابن "عبدالمنعم الصياد" الذي راح قتيلًا منذ عشرين عامًا حين أقدم على الزواج من ابنة أحدهم..

- وهل ضاقت به الدنيا كي يتزوج بها.

-اهدأ يا "ربيع"، سوف أتحدث معه في هذا الأمر، وسيكون كل شيء على ما يرام، اذهب أنت وقم بتوزيع الزكاة على الفقراء، فقديما كانوا يأتون في حياة أبيك لأخذ الزكاة بأنفسهم، أما الآن فلم يعد يأتي إلينا أحد..

***

سمع "عادل" صوت تلاوة القرآن، فطرق الباب وتنحنح حتى جلس بجوار عمه الذي لم يدم صمته كثيرًا، وراح يسأله عن خبر علاقته بابنة "رمزي"، فزع عادل ورفع طرف حاجبه ولم ينطق بكلمة.. لحظات من الصمت مرت وحسان ينتظر إجابة الفتى الذي غرق في بحر من الفكر والحيرة، ود لو تأخرت المواجهة ليوم واحد، وأخيرًا جهر بحبه؛ فبدت الدهشة على وجه "حسان" وأحمر وجهه، ود هو الآخر أن يكون حديث المعتوه كلاما مختلقا، لكنه صَدَقَ، أصبح في حيرة، فالأمر أصبح خطيرا، بينما ظهر على وجه "عادل" الهدوء عن ذى قبل، وكأنه يعرف طريقه جيداً.. "هذا الفتى سيهلكنا جميعا.." بتلك الكلمات أخذ "حسان" يحدث نفسه وهو يعض على شفتيه في أسى، ثم عاد يذكره بالماضي وقصة من سلكوا نهجه، وكيف كان مصيرهم في النهاية، فمنهم من عاد لرشده، ومنهم من ذهب بلا رجعة هو وأهله.. سكت "عادل" للحظة، قبل أن يعود ليطلق شرارة كادت تحرق المضيفة مؤكدًا أنه اتفق مع "مريم" على الزواج،

ولن يعود في كلمته مهما حدث، فازداد الوضع سوءًا، وبعد أن كان "حسان" يتحدث معه بالعقل والمنطق، انقلب عليه وارتفعت الأصوات بينهما حتى تدخل أحد الصيادين الذي صادف مروره بالخارج، استطاع في النهاية أن يفض الاشتباك بينهما، فخرج "حسان" بصحبة الرجل، بينما ظل الفتى جالساً، بعد دقائق شاهد أبواب المضيفة تغلق عليه، فسارع نحوها فإذ بعمه يحذره من الخروج من المضيفة حتى يعود. ربما تكون هذه المرة الأوليالتي يفعل فيها "حسان" ذلك، فأحس "عادل" بالضيق وكأنه طفل صغير لم يستمع لحديث عمه؛ فقرر حبسه في غرفة بمفرده جراء صنيعه. توسل إليه كثيراً لكنه لم يستجب، لقد خرج يبحث عن أخيه ينقذ ما يمكن إنقاذه..

***

نافذة المضيفة الخلفية كانت ملجأ الفتى للهرب بعد تفكير لم يدم، استطاع أن يعبر النافذة وأصبح حرًا طليقًا، التقط بعض الأحجار الصغيرة ثم أخذ يقذفها في الماء الواحد تلو الآخر وكله غضب مما حدث، ثم أخذ يطوي الأرض طيًّا قاصدًا محل "رمزي"، سار في لهفة وكله أمل أن يعود مرفوع الرأس لا يبالي بحديث الناس ولا عادتهم وتقاليدهم الممقوتة، وعندما وصل إلى مبتغاه وجده مغلقًا، فجلس يندب حظه العاثر.

(١١)

مديرية أمن الإسكندرية.

في الطابق الخامس للمديرية، وفى الغرفة المطلة على الجانب الغربي، جلس على طاولة الاجتماعات عديد من القيادات في جهاز الأمن، جميعهم ينتظرون دخول شخصية لها مكانتها في الجهاز، حركة التنقلات الأخيرة شهدت بعض التغييرات، وعلى إثرها تم تصعيد هذه الشخصية إلى منصب مدير الأمن، وبعد نصف ساعة فُتح باب القاعة، هب الحضور مصفقين ومهنئين مدير الأمن اللواء "فهمي النمر"، لحظات وجلسوا جميعًا في إنصات للاستماع إلى كلمته قبل أن يشرع في تناول بعض القضايا الهامة، ومرت خمس ساعات بعد سلسلة من النقاش وتبادل الحوار، شدد خلالها على ضرورة العمل بكل جهد مع التزام السرية التامة، خصوصا في القضايا الحساسة التي تمس مصالح الدولة العليا.

***

خرج جميع الضباط والقادة ماعدا المقدم "بركات المندوه" الذي ظل جالسًا على كرسيه بأمر من اللواء "النمر" الذي ترك طاولة الاجتماعات وجلس على كرسي مكتبه، فتبعه المندوه الذي بادر بتحيته

وتهنئته بالمنصب الجديد، وما لبث "النمر" أن عرض عليه (ملف خاص)، هكذا كُتب عليه.

أخذ الضابط يتفحص الملف بهدوء وعناية، وبدا عليه أنه يعرف صاحبه، ثم ابتسم وهو يهز رأسه قائلًا:

- إنه رجل الأعمال الشهير "ناصر عبد القادر"..

وقبل أن يكمل حديثه ضرب "النمر" بمخلب يده فوق المكتب، ثم أشار بإصبعه نحوه قائلا:

- أعلم أنك في السابق قمت بفتح الملف الخاص به، إلا أن أمرًا ما حدث جعلك تتوقف.. وهذا ما جعلني أعتمد عليك.

قطب الضابط حاجبيه وأراد أن يتكلم، لكنه سرعان ما لزم الصمت حين تحرك "النمر" من فوق كرسيه وجلس أمامه قائلًا:

- في الأصل، كان صيادا وابن صياد، فكيف بقدرة قادر يتحول هذا الكائن البحري اللزج إلى أشهر رجل أعمال في مصر، لقد أصبح يمتلك ملايين الجنيهات إن لم تكن مليارات.. المطلوب منك تشكيل فريق بحث، يجب أن أعرف عنه كل شيء وعن ثروته، وعائلته ومعاملاته، وتحركاته، وبالأخص ثروته ومصدرها، وكذلك أعماله وشركاته وكل شيء.

- حسنا.. تمام سيادتك.. ولكن؟

"لا أحد فوق القانون في عهدي.." تلك الكلمات كانت كفيلة لجعل الضابط يقدم له التحية بكل قوة، ضاربا إحدى قدميه بالأرض ورافعًا كف يده تعظيمًا له..

دق هاتف المكتب، فعاد "النمر" إلى مكتبه بعد أن أغلق ستائر النافذة، جلس ثم رفع سماعة الهاتف ليجد صوت الضابط "حازم أبو العلا" فسُر به كثيرًا، منذ دقائق كان يفكر في الاستعانة بخدماته، فانتهزها فرصة كي يعرض عليه الانتداب للعمل بالمديرية.

- العمل مع سيادتك شرف وفخر لكل ضابط بالداخلية..

- إذن من الأسبوع القادم، سيتم انتدابك للعمل هنا وذلك لأمر هاااام.

امتعض "حازم" وتبدلت ملامح وجهه، بدا الأمر لا يوافق هواه، فأخذ يعض على شفته السفلى ثم قال في نفسه: "لعله خير يا فندم".

***

ظل "حازم" يفكر ويفكر فيما دار أثناء المكالمة، لكن شغله الشاغل زوجته "يُسر"، فكيف سيخبرها بذلك الأمر، وماذا سيكون رد فعلها خاصة أنها بالفعل قد استلمت وظيفتها الجديدة في إحدى المدارس، ولن تبدي الموافقة بأية حال على ترك العاصمة.

ظل هكذا حتى قطع عليه خلوته مع نفسه صوت طرق بالباب، دخل

السائق بعد طول انتظار، فلقد أنهى دوامه الخاص به ويريد أن يغادر مقر العمل، ذلك الدوام الذي كان يبعده عن زوجته ليلة الخميس من كل أسبوع، فطن حازم لأمره، وأمره بتجهيز السيارة للمغادرة..

***

انطلق بسرعة الصاروخ نحو منزل الضابط، وفى أثناء العودة لموقف المديرية انقلبت السيارة لسرعته الجنونية، هبط الخبر على الضابط كالصاعقة، هرول بسرعة نحو المستشفى وكله أمل أن يجده بخير كما عهده من قبل، كان يصف ضحكته بصوت ضفدع آخر الليل الذي يسكن الترع، كثيرًا ما كان يُحسن إليه، ولم يكن يذهب في مأمورية بدونه، حتى في التنقل داخل المدينة، كان معه ذهابًا وإيابًا، فعرف عنه وعن عائلته كثيرًا، فأصر أن يدخل إلى القبر لحظة دفنه كي يودعه الوداع الأخير، عندها نطق كلمات لم يفهمها المحيطين به، ظنوا أنه يهذي حزنًا على فراق السائق، وقف على باب قبره ليأخذ العزاء بجانب أخيه، رحل المُشيعون فتوجه ناحية زوجته وأولاده، ووضع يده في سرواله ثم أخرج مبلغا ماليًّا ووضعه في يد زوجته التي أبت ورفضت أن تأخذ شيئا، وراحت تبكي على فراق زوجها، فما كان منه إلا أن ترك المال بصحبة أخيه، واستقل السيارة بصحبة أحد زملائه قاصدًا منزله، طيلة الطريق وهو يتذكر ضحكات الرجل وذكرياته معه.

(١٢)

استيقظ "جمال" عقب نوم طويل، ذلك لإصابته بنزلة برد حادة، منعته من ممارسة عمله، أعد كوب اليانسون الدافئ ووقف في الشرفة يتابع غروب الشمس بعد أن اختفت أشعتها الذهبية، دقائق وجلس يتصفح الجرائد، فوجد خبر حركة تنقلات وزارة الداخلية، فأدرك أنه قد فاته الاتصال باللواء "النمر"، فأسرع على الفور وأدار القرص الخاص بالهاتف، ليجد بعد لحظات من الانتظار صوت صديقه، قدم إليه المباركات مصحوبة باعتذار عن التأخر في تقديم التهنئة له على الترقية والمنصب الجديد.

***

عاد مرة أخرى لمواصلة قراءة الجرائد حتى كسر عليه حالة الصمت عودة ابنته.. كثيرًا ما جلس في الشرفة يحتسي القهوة ويتصفح الجرائد في هدوء وسكينة، حتى تأتي "هبة" وتمارس معه لعبتها المفضلة فينتفض جسده. "هبة" الملاك الجميل، أحب الناس إلى قلبه، صارت تكبر يومًا بعد يوم حتى صارت آنسة، تملك من العمر عشرين عاما، لقد التحقت

بالجامعة، وجعلت لها شخصية قوية أهلتها لتصبح عضوا باتحاد طلاب الكلية، ثم رئيس لاتحاد كليتها، صعبة المراس، نادر ما يقف أمامها أحد في مخاصمة وينتصر، هي الفائز دائمًا لِما تملكه من عبقرية فذة..

- إلى متى ستظل تنتفض من مقعدك أيها الصحفي الهُمام؟

غمرته السعادة وضحك قائلًا:

- سأظل هكذا حتى يأتي الفارس الهُمام ويأخذ بيدك إلى بيت الزوجية..

أخذت تتمايل بجواره كالفراشة الهائمة على الأزهار وهي تقول:

-أنا أعشقك يا أبي.. ولن أتزوج سوى بشخص يُشبهك في كل شيء.

فهمس في أذنيها أنه لا يوجد له مثيل في الحياة، ضحكت كضحكات طفل صغير لم ترهقه أمور الحياة، ثم طبعت على جبينه قُبلة، وتوجهت على إثرها نحو زهور القرنفل تداعبها وتسقيها..

***

بعد انتهائه من تناول الطعام، جلس "مالك" في الشرفة ممسكًا سماعة الهاتف يتحدث مع خطيبته موجهًا إليها اللوم والعتاب. طرق "جمال" باب الشرفة الزجاجي، فأسرع "مالك" ينهي مكالمته والغضب يعتلي وجهه، قدم إليه كوب الشاي الحبر الذي يعشقه، ثم أخذ يستفسر عن

سبب الغضب الذي بدا على وجهه، لكنه آثر الصمت للحظات قبل أن يعود قائلا:

- لا شيء..

اقترب بالكرسي منه أكثر وداعب شعر رأسه، وعاود طرح السؤال عليه مرة أخرى، فأخبره أنه لا يعرف ما يحدث، فخطيبته تتحدث عن خلافات بين والدها و"ناصر" رجل الأعمال الذي له عليه ديون قبل وفاة "عبدالقادر"، و"ناصر" يطالبه بالسداد.. إنها تتحدث أن والدها لن يستطيع الالتزام باتفاق الزواج..

صُدم "جمال" من حديث ابنه ووجه له اللوم لعله قال لها شيئا قد يغضبها، لكنه أقسم أنه لم يكد ليتحدث معها حتى بادرته هي بحديثها عن إنهاء العلاقة، فجعل "جمال" يهدئ من ثورته بعد أن كاد ينفجر بركان غضبه مؤكدًا على أنه سينهي الخلاف إن كان هناك شيء خلال زيارته للإسكندرية الأسبوع المقبل..

وفي تلك الأثناء، دخلت "هبة " إلى الشرفة، فغادر "مالك" المكان برمته بصحبة صديق كان ينتظره أسفل العقار.

***

انتظر "جمال" دقائق لتبادر ابنته بالحديث، فلم تتحدث فانتابه بعض القلق، فبادر بسؤالها عن إذا كان هناك شيء في الجامعة يغضبها، فأجابت أن كل شيء يسير على ما يرام، خاصة بعد نجاحها الباهر في سباق الترشح لعضوية اتحاد الطلاب..

-عظيم جدا يا ابنتي، لكني أعتقد أن هناك شئ ما؟

ضمت ساقيها بعد أن جلست، وبعد لحظات من الصمت عادت تذكره بحادثة التسمم التي حدثت لها قبل بضع أشهر..

- أتتذكر تلك الممرضة التي لم تفارقني منذ دخولي المستشفى؟

- نعم.. أتذكرها، كان زملاؤها ينادونها بـ..

- "ريم" يا أبي..

- بالفعل ذاك اسمها، لكن ما الأمر إذن يا حبيبتي؟

- لقد أفزعتني ابنة عمها بمكالمة صباح اليوم..

***

"ريم" طيلة الأشهر الماضية أصابتها حالة نفسية بعد أن قامت بقطع شُريان يدها ودخلت المستشفى التخصصي، لقد اكتشف الأطباء أنها تحمل جنينًا بين أحشائها، فأرادت أن تتخلص منه حتى لا ينفضح أمرها..

خرج الطبيب من غرفة العمليات فأخبر الدكتور "أحمد" أنها ستكون بخير هي والجنين بشرط الراحة التامة، لكن يفضل عرضها على طبيب نفسي، فزع خطيب "أماني" من هول ما سمع، لم يتصور يومًا أن "ريم" صاحبة القلب الأبيض تفعل تلك الفعلة الشنيعة، فعاد يكرر آخر كلمات الطبيب.. "طبيب نفسي.. طبيب نفسي". لم يستطع تحمل الصدمة، ولازم الصمت وانصرف دون أن يجيب على سؤاله أهي متزوجة أم لا؟ شغله الشاغل، هو كيف يخبر أهل القرية ومن قبلهم والدها وعمها بما حدث.

أصابه صداع رهيب وارتفع ضغط الدم جعله لا يستطيع أن ينظر أمامه، استند إلى الجدار فقدماه لم تستطيعا الصمود وتحمل السير، تجاوز الطرقة المؤدية إلى صالة الانتظار حيث يجلس كبار أهل البلدة بصحبة والدها وعمها، بينما أهل البلدة يفترشون الحديقة أمام المستشفى، يجلسون في حلقات يتسامرون وأعينهم تلوذ بالسماء بين دقيقة وأخرى.. وما إن جاوز الطرقة، حتى وجد كرسيًّا جلس عليه يلتقط أنفاسه المتصارعة، دقات قلبه لم تتوقف، دقائق حتى هدأ روعه وتماسك وواصل السير، انصرف أهل القرية بعد أن اطمأنوا على حالة ابنة كبيرهم.. رحلوا جميعًا سوى اثنين مازالا يجلسان، الحزن أسدل ستاره فوق رأس الحاج "أحمد"، وكأنه لم يقتنع بحديث الدكتور مع أهل القرية أنها تعرضت لجُرح وصل لقطع

شريان يدها حين سقطت فوقها آلة حادة.. فأخذهما لغرفته الخاصة، وظل المهندس نبيل يشاطره الحديث ويطمئنه أنها ستكون بخير، تدخل الدكتور "أحمد" في الحديث، بعد أن استفاق من الصدمة واستقر على أن يخبرهما بالأمر؛ حتى لا يتحمل مسئوليتها إن حاولت الانتحار مرة أخرى، قام بغلق الباب جيدًا ثم استدار وأخبرهما بالحقيقة التي هزت أركان الغرفة.. ساد الصمت الغرفة لثوانٍ قبل أن يتحدث الحاج "أحمد" قائلا:

- ماذا قلت..؟

عاد الدكتور ليؤكد على صدق حديثه، بعد أن قام بفحص عينة الدم التي تم أخذها ليتأكد منها، وبالفعل جاءت النتيجة لتؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك، انتفض الحاج "أحمد" من كُرسيه نحو الباب، وخرج إلى الطرقة مسرعًا ثم توجه نحو غرفة ابنته وعينيه تقذف دمعًا بغزارة كأمطار الشتاء، لحق به "نبيل" ويتبعه الدكتور" أحمد"، أخرج من جعبته سلاحه الناري، فأسرع الاثنان يمسكانه في محاولة لتهدئته وإبعاده قدر الإمكان عن الغرفة، فراح يبكي بكاء الأطفال بين أحضان أخيه الذي راح يحتضنه، بينما ظل الدكتور ممسكًا بمقبض بالباب..

- اهدأ يا أخي كي نفكر مليًّا في الأمر، أعرف أن الأمر صعب لكن ما حدث لا يمكن إنكاره.. الأهم لحظة استفاقتها يجب أن نكون بجوارها متماسكين، حتى نعود إلى المنزل ويكون لنا حديث وحديث..

في تلك الأثناء كانت "أماني" تتابع ما يحدث من خلف زجاج الغرفة والدموع تنساب منها، عاد الثلاثة مرة أخرى إلى الغرفة كي يستريحا حتى الصباح..

***

طرق باب الغرفة أحد الممرضين ليخبره أن هناك حالة في الطابق الرابع تستعد لدخول غرفة العمليات والأطباء في انتظاره، على الفور خرج "أحمد" متوجهًا إلى غرفة التجهيز.. تلك الغرفة تشبه غيرها من غرف تجهيز المرضى للعمليات في الأجهزة فقط، بينما هذه كانت خاصة للعمليات غير المشروعة من سرقة الأعضاء البشرية، ومن ثم بيعها دون إذن أصحابها بآلاف الجنيهات، والموت ثعبان يفتح فاه ليبتلع كل مريض يدخل من تلك الأبواب، يظل يصارعه ليل نهار حتى يقضي عليه..

بعد ثلاث ساعات خرج المريض مباشرة نحو ثلاجة الموتى، وتوجه "أحمد" إلى غرفة خاصة به في الطابق نفسه كي يستريح من عناء عمله، وما إن جلس حتى اعتدل وأمسك بسماعة الهاتف، وراح يدير قرص

الهاتف فلم يجب أحد عليه، دقيقة أخرى وأشعل عمودًا أبيضًا، ثم راح يدير قرص الهاتف من جديد..

- مساء الخير..

- ...تصل إليك سيارة نقل الموتى في غضون يومين.

- راجع حسابك في البنك..

- رائع.. لكني أتعرض لمضايقات كثيرة من أهل الموتى..

- كل شيء له مقابل؛ وأبواب الجنة لن تفتح على مصرعيها بمفردها..

- حسنًا، لن أقبل بأقل من مبلغ مليون ومائة ألف جنيه..

***

لم يكد يضع سماعة الهاتف حتى دق من جديد، فوجد الدكتورة "داليا شاهين" تتحدث إليه كي تطمئن على حالة "ريم"، دُهش للحظات وعاد يستفسر منها كيف علمت بذلك؟ فلم يأخذ منها ردًّا شافيًا إلا أنه تأكد أن بالمستشفى من يقوم بنقل كل ما يحدث إليها، فعادت لتؤكد أنها في سبيل عودتها إلى القاهرة بعد حضور أحد المؤتمرات في ألمانيا، وضع سماعة الهاتف وراح يفكر في المحيطين به، راوده الشك في ثلاثة، كانت منهم إحدى الممرضات التي لا تفارقه في أية عملية يقوم بها، لكنه عاد ثانية

ليتذكر أنها لم تستطع الحضور اليوم لمرض ابنها، فعاد يفكر ثانية لكنه لم يهتدِ لشيء..

الدكتورة "داليا" شريك بالمناصفة بعد أن اقترحت عليه تطويرًا شاملًا بها، بحيث يتم زيادة عدد الدور والأسرة، واستخدام أجهزة متطورة وإنشاء ثلاث غرف عمليات وَوَحدة لغسيل الكلى، فكانت تلك البداية، وأزداد رواد المستشفى يومًا بعد يوم، وما أكثرهم في ظل انعدام الرقابة على الغذاء، فكانت وَحدة الغسيل الكلوي الوَحدة النشطة في المستشفى، وازداد معها دخل المستشفى المادي، وذاع صيت الدكتور "أحمد" في الغربية كلها، وارتفعت أيدي المرضى بالدعاء له.

***

-هذا ما حدث لتلك الفتاة المسكينة يا أبي..

- من فعل تلك الجريمة لابد أن يقع تحت طاولة القا...

وقبل أن يكمل حديثه باغتته "هبة" بقولها:

- وكيف يقع تحت طاولة القانون من يقف في ساحته مدافعًا عن الأبرياء..؟!

دُهش جمال من حديثها، وأخذ يسأل أكثر ويستفسر عن إذا كانت تعرف أية معلومات عنه، فأجابت قائلة:

- "سليم عبد الرحمن" الذي سبق ورافع في قضية وزير الاقتصاد.. لقد أخبرتني ابنة عمها بذلك.

تسمر "جمال" للحظة في مكانة، وما لبث أن أفلت كوب الماء ليسقط من يده، فأصابها الفزع لكنه سرعان ما طمأنها، ثم عاد يسأل مرة أخرى عن دور أسرة "ريم" في تلقيهم الخبر، مرورًا بدور المحامي الخاص بهم، وما إن قاموا بتحرير بلاغ للنيابة أم لا؟

- بالفعل قدم بلاغًا للنيابة التي أمرت بحفظ التحقيق لعدم أهلية "ريم" بعد أن ذهب عقلها بالجنون..

سمع "جمال" كلمة الجنون، فأصابه الهلع وكأنه يستمع لقصة أحد الأفلام، فعاودت "هبة" لحديثها:

- أهلها يريدون الأخذ بالثأر يا أبي..

صاح "جمال" قائلًا:

- يجب أن نقوم بزيارتهم في أقرب وقت..

فاستغلت "هبة" الفرصة لتعرض عليه بعض التقارير التي تم عرضها في الندوة الأخيرة لها بالجامعة، والتي رصدت حالات كثيرة لقهر

المرأة في مصر بدءًا بعمل البنات وهن قاصرات، إضافة إلى التعذيب على يد الأزواج، وكذلك بعض حالات الغارمات اللائي يجدن أنفسهن في النهاية داخل غياهب السجون، وصولا إلى حالات العنوسة والطلاق التي تزداد كل يوم، والتي تتحدث عنها مجلات المجتمع وفى النهاية تكون المرأة هي المتهمة، بدلا من أن تكون المجني عليه ويكون مصيرها إما السجن، وإما أن تعيش أرملة وسط بشر لا يرحمون.. أخذ يطالع التقرير من حوادث موثقة ثم توقف مبتسمًا وأردف قائلًا:

- إذا كان جميع النساء في المدينة مجنيًّا عليهن فليرحم الله الرجال..

فضحكت حتى ارتفع صوتها ووصل إلى الداخل، وبعد لحظات جاءت زوجته الدكتورة "عبير" وانضمت إلى صف نون النسوة فيالنقاش، وعلا صوت الضحك أرجاء الشقة من جديد.

***

"عودا حميدا" عبارة ظل يرددها كل شخص مر بـ"ناصر" عقب هبوطه من الباخرة.. عاد "ناصر" إلى الإسكندرية من جديد، ومعه بعض الهواتف اللاسلكية التي استطاع بفضل الامتيازات التي يمتلكها ومعرفته برجال الجمارك أن يدخلها عبر بوابة الميناء دون تفتيش، كل شيء يُسِّر له الآن، فقد أصبح لديه رجال في الميناء يتقاضون أجرًا شهريًّا، يقدمون له

التحايا الواحد تلو الآخر، بل ويتسابقون إليه طمعًا في رضاه. استقبله "أسامه" والحرس الخاص به الذين لا يفارقونه خلال تواجده في مصر، استقل سيارته دون السائق، فقد أمره أسامه أن يستقل سيارة الحرس.. وانطلق "أسامة" بالسيارة نحو القصر وبعد دقائق من الصمت وبعد أن التقط "ناصر" أنفاسه، أخرج مجموعة أوراق من حقيبة سوداء من نوع "سنسونيت"، وما لبث بعد أن تصفح بعض منها، ثم أخذ يسأل عن حركة العمل في شركة التصدير وأشياء أخرى، أجاب "أسامة" بعد أن تخطى إشارة مرورية وانعطف يسارًا ليقترب من القصر:

- منذ ثلاثة أيام، تم شحن السفينة "نارمر٨٠" وأبحرت صباح اليوم من الميناء ناحية السعودية، أما ما يخص شركة الجنوب، فتمت عملية تسليم المقبرة بحضور.. "أبو جعفر النوبي" و"سالم السلحدار".

لمعت عينا "ناصر"، وراح يسأل عن المقابل الذي تم الحصول عليه نظير بيع المقبرة، فأجاب "أسامة" أنه تم تحويل مبلغ خمسين مليون دولار إلى بنوك سويسرا، الأمر الذي جعله يتنفس الصعداء. أخذ "ناصر" يستفسر عن لقاء الخواجة وما حدث، واطمأن قلبه حين تأكد أن كل شيء سار على ما يرام.. ابتسم ناصر وهو يشير بعلامة النصر قائلا:

- سنجني كثيرًا من المال إن تم كل شيء حسب الاتفاق، فالجماعات الإسلامية تحتاج لكمية لا بأس بها من أجل تعزيز موقفها، وكذلك عائلات الصعيد التي تسعى للأخذ بالثأر، هؤلاء يدفعون ما نطلبه وأكثر؛ من أجل أن يمتلك الواحد منهم قطعة سلاح محشوة بالذخيرة الحية، لنتركهم يأخذون بالثأر ونجلس نحن لحصد الأموال، هكذا هي الحياة؛ كل شيء بمقابل.

اقتربت السيارة من أسوار القصر، فتذكر الفتى مكالمة "حسان" وقصة ابن عمه "عادل" فراح يقص عليه الخبر.. تسمر وجه "ناصر" للحظات، وما لبث أن عاد ليضرب كفا بكف، ثم أخذ يداعب لحيته الخفيفة قائلا:

- هذا الولد المغرور سيفتح علينا جميعًا باب الفتنة من جديد.

- يا أبي، يجوز له أن يتزوج منهم..

زجره ناصر وكأنه يقول شيئا غير حقيقي وأردف قائلًا:

- وهل بناتنا قد مِتْنَ حتى يتزوج من ابنة "رمزي"؟

فما كان من أسامة إلا أن قال في غضب:

- كل إنسان له خصوصياته، وليس للناس دخل به..

ازداد "ناصر" غضبًا لأنه يعلم أن حدوث فتنة في ذلك التوقيت هي ضربة لمصالحه السياسية التي كان يعد لها، بل وباتت على مقربة منه، بعدما أصبح على أعتاب المجلس الموقر بوعود من شخصيات كبرى، وما إن توقفت السيارة أمام باب القصر الداخلي هبط "ناصر" وهو يمط شفتاه قائلًا:

- لا يوجد في زماننا شيء يدعى الحب.. لقد مات الحب وشيعت جنازته.

في تلك اللحظة جال بمخيلة "أسامة" قصته مع "بلطيه"، فمط شفتيه هو الآخر بعد أن ضرب بقدمه اليسرى باب السيارة، وعلى أعتاب باب القصر توقفا عن الحديث حتى دخلا إلى الساحة، ثم مكتب ناصر وأغلقا خلفهما الباب الزجاجي، وجلس "ناصر" على كرسي مكتبه مُتسائلا عن مستشفى طنطا والدكتور "أحمد"..

- وصلت سيارة نقل الموتى أمس في وقت متأخر من الليل..

وضع "ناصر" يده على خاتمه، وهو يفركه فركًا وأخذ يسرد لأسامة تفاصيل أول عملية بيع أعضاء بينهما منذ سبع سنوات:

-"كنت دائم الترحال إلى أسوان، فجميع التعليمات كانت تأتي من هناك، بعد السد في إحدى القرى الفقيرة، يتم عقد الاجتماعات بين رجال المافيا الذين يحضرون إلى مصر تحت مظلة السياحة.. تعرفت هناك إلى الدكتورة "داليا شاهين"، ومن حينها نشأت بيننا الصداقة، حتى جاءت ذات يوم لتخبرني أنها في سبيل عقد شراكة مع أحد زملائها القدامى، والذي سيقوم بدوره بإجراء العمليات، بينما ستكون هي في غرفة الإدارة وستتدخل إذا لزم الأمر.."

صار "ناصر" يقص ما حدث، ثم عاد يخبر "أسامة" أن لكل شخص في الحياة رسالة عليه أن ينهض بها، وما دام الدكتور "أحمد" قد أدى رسالته، فلا سبيل سوى وقف نشاطه إلى الأبد..

كتب جمال في إحدى الصفحات..

"البداية السيئة تؤدي إلى نهاية سيئة، تلك الحقيقة التي لا يمكن إنكارها على مر الزمن..."

(١٣)

عادت ريم إلى المنزل شاردة الفكر والوجدان، تحدث نفسها كثيرًا، وتتحاشى جميع الناس باستثناء "أماني" التي ما إن كانت تُهل عليها حتى يستقيم أمر غرفتها، وما إن ترحل حتى تعود إلى حالتها السابقة، تارة شاردة في صمت، وأخرى تُصيح وتصرخ، تجلس كثيرًا في زاوية الغرفة، تضم ركبتيها إلى صدرها، لا يعرف النوم لها طريقًا، لذلك آثر الطبيب استخدام المهدئات الطبية.. غادر الفرح المنزل وحضر الحزن، خاصة مع علم أهل القرية بأمرها، فاستشعر والدها الفضيحة، فاختلى بنفسه في مضيفته لا يبارحها رافضًا أن يزوره أيٌّ من أبناء قريته سوى أخيه المهندس الذي كان يلازمه.. يمر الخميس يتلوه آخر، ولا جديد يذكر، الهواء بات يعبث بأركان المضيفة، عناكب الحزن نسجت خيوطها في كل شبر من أرجاء المائة شبر..

الدكتور "أحمد" مازال يجري عملياته بنجاح، وفى الجانب الآخر، ارتفعت أسهمه المالية في البنوك، وعلى الرغم من كل هذا، لم يتخلَّ عن متابعة "ريم"، مما جعل خطيبته تتعلق به أكثر من قبل، فقد وجدت فيه كل المشاعرالتي تبحث عنها، للحظة ظنت أن الحظ قد ابتسم لها، عاشت في حُلم المستقبل المشرق كلما نظرت له، هو أيضًا بادلها الحب بصدق، وتمنى أن

يجمع بينهما بيت واحد، وفي إحدى الزيارات لها داهمه اتصال يطلب منه الحضور بسرعة لإجراء عملية خطيرة فغادر مسرعًا، وفي أثناء عودته إلى المستشفى، تعطَّلت به السيارة فوق قضبان القطار ولم يستطع العبور بسيارته، فعبرت روحه إلى السماء.

***

لم تجد "أماني" غير قبره كي تلقي بنفسها فوقه وتحتضنه.. وظلت هكذا على مدار أيام عديدة، لا تفارق القبر حتى هزل جسدها، يذهب إليها والدها المهندس ليأتي بها كل يوم عند الغروب، بعد غروب ضحكتها عن الحياة..

(١٤)

"طلقني لأنني لن أستطيع العيش معك بعد اليوم، فقد وجدت الملاذ أخيرًا في الحياة، إنسان يستطيع أن يؤمن مستقبلي.. زوجي العزيز لا تنزعج على أولادك، فعندما يكبرون سوف أقوم بإرسالهم إليك حتى تتولى رعايتهم.."

تلك الرسالة كانت مثل طلقة أصابت هدفها وبدقة، وكان الهدف قلب المسكين "أكلاشيه".. يعمل في مكتب "سليم" من أجل أن يعود في نهاية يومه محملًا بما لذ وطاب من الطعام، نظير أن ترضى عنه زوجته صاحبة القوام والجمال، لكن "كافرة النعم" على حد قوله لم تكن لترضى بأي شيء يحمله إليها.. استشاط غضبًا وذهب يسأل عنها الجيران لكن دون جدوى، أرسل إليه "سليم" حين أصبح تغيبه عن العمل ملحوظا، فحضر إليه وأخبره بأمره فأخذ يهدئ من روعه، قبل أن يؤكد له أن من العار أن تظل تلك المرأة على ذمته بعد فعلتها، ويجب عليه أن يطلقها، فاستجاب له بعد عدة محاولات من "سليم"، قبل أن يشاهدها تنزل من عقار سكني فخم وتستقل سيارة كان يقودها الرجل الذي يعمل في مكتبه، لم يصدق

عينيه، وعبر الطريق بأقصى سرعة كي يمسك بهما، لكن السيارة كانت أسرع منه..

واجه الرجل "سليم" بما شاهده، فأنكر عليه ذلك ورماه بالجنون، مما جعل الدماء تفور في رأسه، فهجم عليه وباغته بضربة فوق رأسه، فأطلق عليه المحامي رجاله، فقاموا بتكسير عظامه، وأصبح محني الظهر يمشي كالسلحفاء، ظل يتنقل هنا وهناك، حتى استقر في كوخ صغير على أطراف "الكرام"، تصاحبه القطط والكلاب أكثر من البشر. وكثيرٌ ما جلس معه "عادل" يشكوا له هموم الحياة دون أن يعرف عن قصته شيئا، فقط يريد أن يتخذ منه متنفسًا، حتى وإن كان هذا المتنفس معتوها قد أصابته لعنات الحياة.

أكلاشيه صار يتغزل فيها ليل نهار قائلًا:

صياد كان عاشق جنيّة

تضحك وتقوله يا عنيا

أنت أغلى من الذهب

أنت عندي بالحياة

صياد كان عاشق جنيّة

***

لم يجد "عادل" ملاذا من جحيم عمه حسان ووالده سوى الهرب نحو منزل "مريم"، بعد مرور نهار يوم كامل، استطاع فيه أن يهدأ من حدة حديث عمه، وأراد أن ينهي الأمر قبل أن تصادر حريته في التعبير عن حبه، فاستقر به الحال أمام باب محبوبته.. طرق حُلية الباب، أحس لحظتها بطرق في قلبه، ازادت نبضاته وأخذ يتصبب عرقا، كأن الجحيم ينتظره بالداخل، للحظة تخيل أبناء عمومتها وهم يقفون بالشُّوم خلف الباب فحدث نفسه:

- ها أنا قد وصلت أخيرًا.. إني قادم إلى التهلكة، أعرف ذلك جيدًا، لكني وعدتها بعدم التخلي عنها مهما يحدث.. تمسك بالأمل يا رجل، فالموت يأتي مرة في العمر.

ملامح وجهه التي تشبه كثيرًا ملامح جده الراحل "عبد القادر"، كان لها بالغ الأثر في تودد "رمزي" إليه منذ صغره، على الجانب الآخر، وقف شخص يعد عليه أنفاسه كلما وجد بينهما المحبة، "عيسى" ابن أخت "رمزى".

استقبله بحفاوة وترحيب كما كان يستقبل جده، دار بينهما حديث قارب الساعة، لم يخُلُ من الضحك والترحم على الماضي وآثاره.. كادت السعادة أن تخلع قلبه من بين أضلعه لحظة أن جلست "مريم" بجواره

متأنقة في فستانها الأبيض الذي يقطعه من نصفه الزهور في حلقة شبه دائرية.. "عادل"، الفتى الحالم، هكذا تصفه "مريم"، تخيل أنهما يجلسان يوم الزفاف، عليها الفستان الأبيض، بينما هو يقبِّل يدها والابتسامة تغلف وجهه.. فاستفاق على وغز إصبعها في جانبه الأيسر، فوجد نفسه مازال في دنيا الواقع، فبادلها الابتسامة التي رُسمت على مُحياه كطفل صغير لثوانٍ قبل أن تغادر وتغادر معها الابتسامة.. عطرها المميز، فاحت رائحته وتعطرت به الغرفة فأحس بالنشوة، في السابق، ذهب لميدان "إبراهيم باشا"، حيث أحد متاجر العطور وأعده خصيصًا لها، بل وأسماه باسمها "مريم"..

أغلقت الباب خلفها، وظلت بالخارج خلف شراعة الباب الزرقاء، تدعو أن يمر هذا اليوم على خير، هي لا تريد أن تخسر والدها، ولا هذا العشق الذي استوطن قلبها واتخذت منه ملاذًا من قسوة الحياة. بدا الفتى وكأنه طالب في امتحان الثانوية العامة، فأخذ يتصبب عرقًا من الخوف، وظهر عليه توتر شديد عندما هم أن يصارحه، لكنه سرعان ما عاد أدراجه ثانية وتحدث عن أشياء أخرى، حدثه عن صداقته بجده الراحل والذكريات التي جمعتهما معا، والأيام الخوالي وكيف كانت قرية "الكرام" في عهد جده.. فقطع حديثه "رمزي" قائلًا:

- كنا أصدقاء طيلة العمر وكان لا يأتمن على سره أحد غيري، فكنت كما يقولون الصندوق الأسود لجدك"قدس الرب روحه".. حين سمعت خبر وفاته، شعرت كأن الدنيا أظلمت في وجهي، وأصابني دوار وأغشي عليَّ.. وحين استعدت أنفاسي ثانية، وحل جميع من حولي، أدركت أن الحياة بلا صديق مثل بيت بلا سكان، فقط تسكنه العناكب لتنسج خيوطها.. حياة بلا صديق مخلص لا تكون حياة، بل هي أشبه بالمقبرة..

رفع "رمزي" طرف عينيه من الأرض، ليجد الفتى شاردًا في ملكوته، فقطب حاجبيه قبل أن يسأله عن الشيء الذي جاء به، فتمالك أنفاسه وأعلنها بكل صراحة "إني أحبها.. أحب مريم، وأريد أن...."، تلك الكلمات كانت كفيلة أن تجعل قلب "رمزي" يتوقف عن النبض، لم يخطر بباله يومًا أن الدائرة ستدور بعد حادثة ابن "عبدالمنعم" الصياد وتتوقف عند بيته، حديث "عادل" جعله يشعر بدوار شلَّ تفكيره للحظات قبل أن يستعيد أنفاسه قائلًا:

- هل تعرف خطورة ما تتحدث عنه يا فتى؟

وبعد جهاد متصل بينهما، سكت "رمزي" بينما الفتى يجلس وقلبه يئن في انتظار النطق بالحكم، يريدها براءة، لا حكما بالإعدام، خاصة أنه يعلم مقدار محبته لدى القاضي..

- أعِرْ لي انتباهك جيدًا يا ولدى.. لقد قضيت عمرى كله بين أحضان "الكرام"، شربت الماء في كل بيت من بيوتها، وليس بيني وبينكم سوى محبة الرب التي تجمع بين القلوب.. جدك صديق لي، وكنت صندوق أسراره كما ذكرت لك، إلى أن داهمه المرض وصعدت روحه إلى السماء.. والصديق الحق، من الصعب أن تجده، وإذا وجدته فمن الصعب أن تفارقه، ومن المحال نسيانه.. خذها كلمة من رجل شارف أن يودع الحياة، لقد اصطفيتك لتكون ابنا لي، وفى عقيدتنا وعقيدتكم، لا يجوز للابن أن يتزوج أخته.. فَحِبَّ من شئت، فقلبك ربما لا تملكه، لكن اختر لأولادك أمًّا مثل التي اختارها أبوك..

الكلمات أخذت تنزل عليه كسيل من سجيل وهو يضغط بأسنانه على شفتيه، يعلم جيدًا حجم البركان الذي أقدم عليه، لكنه الآن في قلبه، فإما أن يقاوم وإما أن يتفحم جسده، فعاود الكرَّة من جديد، لكن دون جدوى، فما كان منه إلا أن جمع شتات أمره وعقد العزم على الرحيل.

***

في أثناء خروجه من الغرفة وجدها جالسة على كرسي الطاولة، تنتظر مصيرها المحتوم فوقفت فتوقف، جمعت بينهما نظرة عين مليئة بالحزن والأسى، فقبض يده كلاعب القتال الحر وضرب بها مقدمة الطاولة في

غضب، حينها أطلقت زفرة من عينيها وأمسكت بأطراف يده من الخلف، فاستدار وهو يمحو الدمع عن محياه طالبًا منها العفو والصفح، وأن تنسى الأمر وكل ما كان؛ فلم يستطع أن يفي بوعده..

– الشيء الذي لن أغفره هو أني أحببتك.. كيف أعيش الحياة بدونك؟ حياتي من غيرك لا تكون حياة..

تركها فسارت تلاحقه في بكاء عند باب المنزل، بينما ظل "رمزي" في مقعده وكأنه قد أصابه الشلل، وضعت يدها على كتفه، فلم يستطع هذه المرة أن ينظر إليها وواصل المسير، ثم وقف على عتبات البيت ينظر إلى السماء وهو يقول: "يوما ما، سأجلس بين السحاب، حينها ستهوى ترانيم البشر". ورحل. لتبكي على فقده، فاحتضنها "رمزي" بعد أن استعاد توازنه، أخذ يخفف عنها ويطيب خاطرها، عبر لها عن مقدار حبه، فحب الأب لابنته لا يساويه شيء في الحياة، خاصة إن كان هو من قام بتربيتها بعد وفاة أمها. فصارحته أنها تعشق "عادل" غير عابئة بتلك الحواجز التي وضعها البشر، فأخذ يحذرها من مغبة الخروج من البيت تجنبًا للفتن، وبدوره سيتحدث مع والده وأعمامه حتى يتقي تلك النار، فلم تجد مناصًا وهرولت إلى غرفتها تتبعها هرتها الصغيرة، فألقت نفسها على السرير وهي

تبكي بكاء شديدًا، فأخذت الهرة تتمسح بها وتموء مواء، كأن قلبها يئن من أنين صديقتها..

***

مرت قرابة نصف الساعة، و"عادل" يقف على باب الكوخ، ليحتمي به من الأمطار التي هطلت بغزارة، فشاهد "أكلاشيه" الحزن على وجهه، فتيقن أنه لم يبلغ المراد، فأخذ يقترب منه وربت على كتفيه وأعطاه كوبا من "الشاي"، وتركه وعاد يصنع آخرًا له، ثم أمسك بعصا الربابة يغني..

أنا قلبي شط حزين

مهجور من الأحباب

يصرخ يقول الآه

متقفلة الأبواب

أنا قلبي يا ولداه

عايش كطفل أسير

تفصله الأسوار

عن الضحكة والفرحة

أنا قلبي شط حزين

مهجور من الأحباب

(١٥)

أنهى "حازم" أوراق انتدابه إلى الإسكندرية بناء على طلب من "النمر"، بعد صراع ومعاناة شديدة في سبيل إقناع زوجته "يُسر" أن هذه مأمورية وستنتهي، إلا أنها أبت أن تغادر القاهرة وتترك عملها الذي التحقت به منذ أيام. نشب بينهما الخلاف على ذلك، وازداد الأمر سوءًا بعد وفاة سائقه الخاص، فما كان منه إلا أن فقد السيطرة على حديثه، ووبخها بكلمات نزلت كالصاعقة عليها، تناسى للحظة أنه يتحدث مع زوجته لا متهمة في مديرية الأمن، تركت له ساحة النقاش بعد نظرة مليئة بالدمع، وتحوَّل وجهها ناحية غرفة النوم، صفعت الباب بقوة خلفها لتهتز أرجاء المنزل، ثم أخرجت حقيبة ملابسها من أسفل السرير، وفى دقائق جمعت شتات ملابسها ومن قبله شتات أمرها..

"يُسر".. ضحت بحياة رغدٍ فيبيت أبيها، أحد رجال الطبقة الرأسمالية والذي كان حائطَ الصد في سبيل إتمام الزيجة بينهما، فتذكرت مقولتهالتي يرددها دائمًا: "الفقراء عبيد لرب رأس المال.."

"إنها لا تعرف عن وفاة السائق شيئا وكيف كان يمثل لي، ولو علمت ستصفح وتعود مجددًا، لكني لم أعتد على الاعتذار لأحد.. أنا حازم أبوالعلا

ضابط الشرطة الذي يخضع له جميع الناس." حديثه ونفسه قطعه صوت غلقها للباب قبل الرحيل.

***

رحب "النمر" به، وطلب منه والرائد "المندوه" أخذ الحيطة، وسرعة البحث والتحري حول "ناصر" وكل من يتعاون معه، وفور انتهاء الاجتماع الثلاثي، وصل "جمال" على أبواب المديرية، خمس دقائق كانت تفصله عن مكتب "النمر" الذي راح يستقبله بكل سرور وهو يسأل عن حال أسرته، فأجاب أن كل شيء على ما يرام "جميعهم بخير"، تلك الكلماتالتي قالها وعقله يطير إلى أرض "الكرام" حيث منزل "بلطية"، بعد أن ترك ابنه في حالة سيئة..

وسرعان ما قصَّ عليه قصة الجميلة "ريم" وما حدث لها، لم يحرك "النمر" ساكنًا لثوانٍ بعد أن أصابته الدهشة من هول ما سمع، فأخذ يضرب بقبضة يده فوق المكتب، ثم راح يخرج دفترًا صغيرًا وقدمه إلى "جمال"، وطلب منه أن يدون اسم المحامي وكل التفاصيل، حتى يتم التحري عنه بواسطة رجال الشرطة، لم ينتبه "النمر" لاسم الجاني في بادئ الأمر، فأعاد النظر ثانية وهو يقول له:

- ما اسمه؟

- سليم عبد الرحمن أحمد توكل من قرية "ميت شبر"...

هز "النمر" رأسه مبتسمًا، ثم تحرك من على كرسيه ناحية خزينة الملفات، وأحضر أحد الملفات الورقية ثم جلس أمام "جمال" وهو يقول:

-اطمئن يا صديقي ستكون قضية "ريم" ضمن القضاياالتي ستضاف إلى ملف "سليم"..

***

وجه بوصلته ناحية بيت "منتصر" الصياد، فاستقبلته الحسناء "بلطية" استقبالًا فاترًا، انزعج كثيرًا ومط شفتيه، وسرعان ما تقدم ناحية "منتصر" الذي حضر مهللًا ومرحبا به، صاحب القلب الأبيض، هكذا يصفه "جمال". رحب "منتصر" به كثيرًا قبل أن يشكوا إليه "جمال" من استقبال ابنته، والتى راحت تسترق السمع في الخارج حتى أن الهواء جعل طرف ثوبها يتطاير أمامها، فجلست على عقبيها في محاولة للإمساك به.. ساد الصمت للحظات والصياد يرفع طرف العمامة البيضاء في محاولة منه لضبطها فوق رأسه، ثم عاد يرحب بصديقه مرة أخرى، الأمر الذي جعل "جمال" يستشعر أن هناك شيئا ما يخفيه الصياد، وقبل أن يتحدث قاطعه "منتصر" مسترسلًا في حديثه عن الديونالتي تراكمت فوق رأسه، فأشار إليه جمال بالتوقف عن الحديث، قبل أن يعود ويؤكد له على وقوفه بجواره

في كل الظروف، لم تنتظر "بلطية" كثيرًا من الوقت واندفعت تحمل بين يديها صندوق الذهب، ووضعته بين يدي "جمال" الذي راح يسأل عن ماهيته،

فلم يجد الصياد أمامه مفر سوى أن يصفعها، ثم أمرها بالتوقف عن الحديث، فلم تتوقف، بل راحت تعدد له أسباب رفضها للزيجة في مقدمتها عدم التكافؤ بينهما.. ظل جمال حابسًا أنفاسه، وفي نهاية الأمر، لم يجد سوى مواساة نفسه و"منتصر"، عقله لم يصدق ما فعلته ابنته، فأراد أن يلطِّف الجو ببعض الكلمات، فما كان من "جمال" إلا أن ترك العُلبة القطيفة بين يدي "منتصر"، لعله يستطيع إقناعها وتعود لرشدها ثانية، وهذا ما رحب به الأب المسكين..

***

تلك الليلة تعدُّ من أسعد الليالي إلى قلب "بلطية"، لقد استعادت حريتها المسلوبة على حد قولها لأمها، فأخذت تسبح في عالم الخيال، حاضنة صورة "أسامة"، تخيَّلت للحظة حياتها معه فيالقصر العظيم الذي لطالما حلمت أن تعيش فيه..

- ألف مبارك يا حبيبتي..

على غير المعتاد، اعتراها الخجل، فلم تستطع أن تجيب عليه، فعاود "أسامة" الحديث ثانية وهو يهمس في أذنيها، فأفرجت عن ضحكة اهتزت لها جنبات الغرفة والقصر، حتى أن الحرس بالخارج سمعوا صداها فابتسموا وهم يتغامزون. أخذت بلطية تحدث نفسها سرًّا..

"هذا العز والجاه، كله أصبح من الليلة ملكا لي.. يا لغبائي، كنت سأخسر كل هذا إذا تزوجت ابن الصحفي... سأظل معك ما حييت يا حبيبي".

ابتسم "أسامة" وقام يتمطى ليغلق الباب بإحكام شديد، ثم أحضر مشروبًا باردًا قدمه إليها بعد أن جلست على الكرسي، فأبت أن تتناوله، فقام بإعطائها جرعة من الحنان والدفء على إثرها سقطت بين أحضانه تغمرها السعادة حتى الصباح..

***

مر يوم والثاني، وكاد الثالث أن ينتهي، تلك المدة التي أمهلها الصحفي للصياد حتى تعود ابنته لرشدها، وفي أثناء مغادرة "جمال" للفندق، استقبل رسالة مع العامل فحواها..."كل شيء نصيب، كنت أتمنى أن تكتمل صداقتنا بزواج الأحبة.. لكن القدر..، إلى لقاء قريب"

غادر إلى القاهرة، يحدث نفسه ماذا يقول لابنه بعد أن طارده بعديد من المكالمات طيلة الأيام الثلاثة، ترى ماذا سيفعل "مالك" حين يعلم بأمر فسخ الخطبة، كل هذا وأسئلة عديدة لازمته طيلة الرحلة من محطة "مصر" إلى محطة "رمسيس".

"لقد أحببتها وعشقت سماع صوتها، فلمَ كسرت خاطري؟ لقد ضحيت بكثير من أجلها.. هل كانت تبادلنى الحب بصدق؟"

استقبل "مالك" حديث والده بحزن شديد وكاد أن يسقط مغشيًّا عليه، لم تستطع "هبة" أن تتركه أسير دموعه وأحزانه وجلست تشاطره قائلة:

-"لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا".

كتب جمال في إحدى الصفحات..

يقول الإمام الشافعي:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرجُ

مضى أسبوع على عودة "جمال"، أفراد الأسرة يجتمعون على طاولة الطعام دون "مالك" الذي أغلق عليه بابه وجلس في غرفته وحيدًا حزينًا بعد أن قست عليه الحياة، وذاق من مرارة الكأس مرتين، بات قلبه مرتعا للهموم والمعناة، ولم تعد للابتسامة مكان فيوجهه، من حينها عاش منعزلًا عن أصدقائه وتصحبه ظلمة الليل. أمثال "مالك" كُثر، والعشاق ما أكثرهم، لكن خناجر الهجر أكثر وأكثر، فبعد أن كان يقبلُ على الحياة بوجه بشوش، يريد أن يأخذها بالأحضان، أدارت له الحياة وجهها، فقرر أن يعتزل الحياة في زاوية غرفته المظلمة غير عابئ بشيء، ازداد شعر لحيته طولًا، وتجعد شعر رأسه، وأصبح في حالة يرثى لها قبل أن تتبدل الحال وتنقضي فترة العزلة..

***

لم تكن حال "أماني" العروس أفضل من مصير ابنة عمها، فقد أصبحت بنات العم ثكلى بعد أن ذاق كل منهما مرارة الحياة ..

استقر "جمال" بعد عودته من الإسكندرية وقرر الذهاب على الفور إلى "ميت شبر" بعد أن علم بتحسن حالة "ريم"، ذهب ليقدم لهم واجب العزاء فيوفاة الدكتور، وظل جالسًا حتى رحل ضابط الشرطة الذي جاء خصيصًا ليرد إليهم حقيبة النقود والأوراقالتي عثر عليها فيسيارته. الحزن

سيطر على الأخوين، لكن "نبيل" كان متماسكًا بعض الشيء، ورحب كثيرًا بقدوم "جمال"، وجهه بشوش على الرغم مما أصابهم من فاجعة، وبين الحين والأخرى يرحب به ويشكره على قدومه، فأخذ "نبيل" زمام المبادرة قائلًا:

- نعلم جيدًا أنك صحافي كبير.. لكننا لا نعرف شيئا عن الحادث غير أن القطار اصطدم بسيارته..

فأدرك "جمال" أنه يتحدث عن حادث وفاة خطيب ابنته، فالتقط أنفاسه للحظة، وأخبره أنه قدم من أجل شيء آخر غير حادث الدكتور، فقطب حاجبيه قائلًا:

- أي موضوع تتحدث عنه؟

أجاب في تردد بعض الشيء:

- "ريم" ابنتكم.. لقد قدمت من أجل الاطمئنان عليها، وثانيًا لدي أخبار عن مكان "سليم" المحامي.

في تلك الأثناء، استدار إليه وتغيرت لهجة حديثه قبل أن تُرسم على محياه ابتسامة خافتة تهكما من حديثه، ليخبره بعدها أن جميعهم يعلمون أين يسكن "سليم"، ثم عاد يؤكد له أن الأمر يحتاج بعضا من الوقت للأخذ بالثأر.. كلمات المهندس نزلت كحجارة من سجيل على قلبه، سكت قليلًا

وعاد يهدئ من ثورته المتصاعدة، مؤكدًا أن القانون هو الذي سيقتص منه، ثم حدثه عن لقائه بـ"النمر" الذي أكد له على اقتراب نهاية "سليم"، وبعد صراع مرير وشد وجذب استطاع أن يقنعه بما جاء من أجله خاصة بعد تحسن حالة "ريم"..

***

في القسم انتظر المحامي الخاص بهم، هيئته لم تكن جيدة، أجعد الشعر ولديه شارب يقف عليه النسر، بذلتة السوداء تعود إلى موديل عام ١٩٨٠م، وما إن شاهده "نبيل" حتى أخذه جانبا وأخبره بالأمر الذي كان ينتظره منذ أشهر، وهو تحسن حالة الفتاة، لقد أعد العدة للانقضاض على "سليم" الذي لطالما نجح في الفوز عليه في معارك عديدة بطرق ملتوية يشوبها كثيرٌ من الخدع، صاح قائلًا:

- "إن ينصركم الله فلا غالب لكم".. أي والله، لا غالب لنا بعد اليوم، لقد حانت قيامتك يا "سليم" سأقتص منك قريبًا..

دقائق وعاد المهندس بصحبة المحامي الذي ما إن شاهد "جمال" حتى ذهب إليه يصافحه بكل حرارة، الأمر الذي أدخل السرور على قلب الصحافي وبادره قائلًا:

- هل تعرفني؟

- وهل يخفى القمر..

ثم أخذ يعرف نفسه وهو يتأنق ببذلته أمام الصحافي والحضور:

- حسين عبد الحميد، الشهير بـ"النسر".. المحامي بالجنايات والنقض وخلافه..

بالداخل كان في انتظارهم مأمور القسم، وبعد اتصال من اللواء "النمر" قام على الفور بتحويل القضية لوكيل النيابة للتحقيق فيها..

(١٦)

عجت مضيفة "عبد القادر" عن آخرها في مشهد يشبه كثيرًا يوم وفاة صاحبها، فيالمقابل امتلأت مضيفة "رمزي"، وما أشبه اليوم بالبارحة، يوم حصول ابنه الدكتور "هاني" على الشهادة العليا في الطب، وأصبح طبيبًا وافتتح المجمع الطبي الخاص به لخدمة أهل القرية، فحضر جميع أهل "الكرام" من المحبين له مهنئين أبن قريتهم البار..

في الجانب الشرقي، حضر "ناصر" بعد أن أخبره "سليم" بتجمهر أهل الفتاة، واجتمع الإخوة من جديد على الرغم مما كان بينهم من قضايا ونزاعات، جلس بينهم "سليم من جديد، وكأن التاريخ يعيد نفسه، جاء "ناصر وسليم" لخوفهم على مصالحهم بعد أن أعلنوا الترشح في المجلس الموقر. "ربيع" تناسى في هذه الأثناء قضية الميراث، ووضع كل الثقة في الحضور، جميعهم يتحدثون عن كيفية زواج"عادل ومريم" وقد أهملوا ذاكرتهم وتناسوا أن ذلك جائز شرعًا، بل وصل الأمر إلى أن أحد الحضور اقترح تهجير أهل بيت "رمزي" جميعهم من الكرام وحينها تنتهي المشكلة، ولم يلحظ أحد منهم عدم وجود "عادل" صاحب الشأن، يومها برز دور

"سليم" في تهدئة الحضور بكلماته التي اعتاد أن يكسب بها ودَّ كل قاضٍ يقف أمامه.

- يا أهل الكرام، لقد خلق الله الإنسان وميزه بالعقل عن سائر المخلوقات، لذا وجب علينا التمييز والعقلانية، إنهم لا يريدون زواج ابنتهم بابننا، ونحن لا نقبل تلك الزيجة بأي شكل كان، كما أن ما حدث قديمًا من المستحيل أن يحدث الآن.

اعترض حديثه أحد الحضور بسخرية:

- منذ متى وكان لـ"رمزي" وإخوته حق في أرض الكرام..

رد عليه ناصر هذه المرة بنظرة تهكم قائلًا:

- يوم أن تنازل ابن عمك الريس "عرفان" عن منزله ومراكبه التي يعمل عليها لهم..

التزم الرجل الصمت ووضع رأسه تحت قدميه ثم أخذ يتمتم قائلًا:

"القمار.. لعنة الله على القمار.. ضيعنا ما نملك بأيدينا".

في الجانب الغربى تحدث الدكتور "هاني" قائلًا:

- الرب خلق في الإنسان العقل ليميزه عن الحيوانات، فيجب علينا أن نفكر في الأمر جيدًا، ما نريده هو إيقاف تلك الزيجة بأيَّة حال دون العنف، وأشهد الرب أني لا أريد إلا الخير..

على الشاطئ جمع الحب بين قلبين ما أردوا من الحياة سوى أن يعيشا معًا بنية خالصة، هي أن تجمعهم معية الخالق.. ظل "عادل" ينتظرها حسب الموعد، لم يمنعهما تجمهر أهل الكرام، جلس العاشقان يدبران أمرهما..

- لا حل سوى الرحيل..

- الرحيل!

- وهل هناك أمر غيره؟

ولم يكن لهما بديل آخر سوى الرحيل إلى دنيا أخرى..

***

جلس أكلاشيه في مكانه المعهود داخل أحد الأكشاك على الشاطئ، وما إن شاهد العاشقين على الشاطئ حتى ذهب إليهما والسعادة على وجهه، فابتسم "عادل" قائلًا له:

- كنت أبحث عنك يا صديقي..

فتيقن "أكلاشيه" أنهما في طريق الرحيل، وضع يده على كتف صديقه قائلًا:

- أين تذهب يا صديقي؟

التفتت إليه "مريم" وهى تزيل آثار الدمع الملطخ بخضابها، وما لبثت أن أخبرته أنها سيلقيان أنفسهما من فوق الفنار..

ما كاد "أكلاشيه" يصيح بالصراخ حتى احتضنه "عادل"، ثم أخذ يوصيه على نفسه قبل أن يربت على كتفيه ويحمله رسالة إلى أهلهما..

***

عند الفنار جمع العشق الأحبة "أسامة وبلطية".. صعدت سُلم الفنار في عفة غير معهودة، بعد أن شاهدت سيارته تقف بالقرب منه، عبرت درجات السُلم في سرعة ورشاقة كالمُهرة العربية الأصيلة، تنظر لأعلى بينما أطل هو برأسه ناحيتها وعاد ثانية يستنشق نسيم البحر.

"كنت على يقين من حضورها"

أشعل سيجاره وهو يحدث نفسه، وما إن صعدت حتى ألقت بنفسها بين أحضانه، هو الآخر راح يبتسم ويبادرها الترحيب، فطبعت على جبينه قبلة لم يكن لها أثر على محياه كالمعتاد.

- من أخبرك أني هنا؟

أجابت في ثقة:

- قلبي..

أخذت توجه اللوم له على عدم حضوره في الموعد السابق بينهما، لم يلق لها بالًا وراح يحدق في عينيها، قبل أن يخبرها بعلمه بفسخ خطبتها بابن الصحافي، سكتت قليلًا قبل أن تغمر السعادة وجهها وتؤكد على صدق حديثه، التفت ناحية النافذة بعد أن كاد يختنق، وهي تقف خلفه تضع أناملها بين أسنانها.

هز أسامة رأسه وعاد ثانية يسألها عن المكان الذي باتت فيه ليلة الأمس، فلم تستطع الإجابة، وتلعثمت وواصلت الصمت قبل أن تجيب أنها كانت في غرفتها، فما كان منه إلا أن صفعها فطرحها أرضًا ليعود ويؤكد لها أنه شاهدها تصعد إلى شقة "سليم" المحامي، لم تستطع أن تنطق بكلمة، الأمر أصبح بالنسبة إليها كالكابوس، تمنت أن تستيقظ منه قبل أن تختنق، ازدادت ضربات قلبها، وأخذت ترتجف ثم سرعان ما استعادت توازنها، أخذت تؤكد له أن ما شاهده أضغاث أحلام، الأمر الذي جعله يصيح في وجهها.. تمالكت "بلطية" أعصابها من جديد، وتبادلا أطراف الحديث الذي جعله يتهكم منها قائلا:

– لقد أتقنت الدور بإتقان، أنت ممثلة بارعة.

أخذت تلطف الأجواء من جديد غير عابئة بما قال، فاستشاط غضبًا وأمسك برأسها وهو يصفعها مرة أخرى، وهي تستغيث به أن يتركها، فقام بجرها ناحية النافذة وهو يقول لها:

- أي حب هذا وأيَّة فضيلة تتحلين بها، الموت راحة لك من العذاب على يدي في الدنيا..

قالها والنحيب على وجهه، ثم ألقى بها وسط الأمواج المرتفعة، لم يكن يخطر بمخيلته بعد تحديه لوالده وعزمه سرًا أن يتزوج منها بعقد عرفي، حتى لا يغضب "ناصر" من أن يرى الخيانة منها، حينها تذكر كلمات "ناصر" له:

"الحب وهم يضعف الإنسان ولا فائدة منه.. الحب ما هو إلا استسلام، وهو هزيمة فاحذر يا ولدي منه، حتى وإن عشت في الحياة وحيدًا بلا حبيب.."

هبط مسرعًا وأخذ يتسلق الأحجار حتى وصل بالفعل إلى السيارة، جلس على المقعد وأدار المحرك، وسار بسرعة جنونية بلا هدف لا يعرف أين يذهب.

***

ومع إشراقة شمس يوم جديد، كانت قوات الأمن قد سيطرت على الوضع في القرية، لكن رسول الموت سبقهم جميعا، وقبل الظهيرة تجمع أهل الكرام بعد وصول رسائل الأحبة:

"والدي الحبيب.. عمى حسان، سامحني، فلم أستطع أن أعيش بدون من اختارها قلبي لنحيا سويًّا، وإني أشهد الله أني أحبها، ولن أستطيع العيش بدونها، لذلك قرر أن يجمع بيننا الموت مالم تجمع بيننا الحياة، كنت أتمنى أن أعيش في أرض الكرام حتى أشاهد حقنا المسلوب يعود إلينا.. تمنيت أن أعيش مع "مريم" أجمل لحظات العمر هنا على أرض الكرام، لكنها أقدار، وأقدارنا كتبت علينا الموت.. حتى يكون راحة لكم جميعًا"

لم يتمالك "حسان" نفسه وهو يتلو نص الرسالة على مسامع الحضور، "ربيع" سقط أرضًا فالتف الناس حوله ينظرون إليه كأنه يحتضر، "ناصر" لم يحرك ساكنا بصحبة "سليم" ورجال الأمن.

في الجانب الغربي وأمام مضيفة "رمزي"، التزم الحضور الصمت حين تلا عليهم الدكتور "هاني" نص الرسالة:

"والدي العزيز.. لقد خلقني الرب حرة عزيزة، أملك محض التصرف في كل أفعالي، لقد اخترت أن أعيش حياتي مع من أحب، أما وأنكم ترفضون ذلك، فإني آثرت أن أترك لكم الدنيا بما فيها، وألقي بنفسي أنا ومن

أحب بين أحضان البحر لنموت شهداء الحب، سامحني يا أبي وليسامحني الرب"

وكأن القدر قد كتب عليهم الالتفاف مجددًا وطي صفحة الخلاف، ظلوا جميعًا يبحثون في السواحل عن جثث العاشقَيْن، لكن بلا جدوى..

(بارقة أمل..)

مر أسبوع ولا جديد يذكر، حتى طفت جثة على سطح الماء، تم انتشالها بواسطة السواحل، الطب الشرعي بدوره عرضها على والد "بلطية" الذي حضر للتعرف إلى الجثة، خاصة وأنه قام بالإبلاغ عن اختفاء ابنته في يوم اختفاء "مريم" نفسه، لم يستطع التعرف إليها، فخرج يندب حظه العاثر ليبحث في مكان آخر..

"رمزي" حين كشف الغطاء عنها تيقن أنها ليست ابنته، فانهمر دمعه ورواده شيطان نفسه أن يخمد نار الفتنة في الخارج حتى لا تلتهم البر كله، فعزم أن يخبرهم أن تلك الجثة هي لابنته "مريم"، وما إن تهدأ الأمور بعدها يرحل عن القرية سرًا ليبحث عنها في مكان آخر..

هدأت الأمور في الجانب الغربي الذي يقطنه "رمزي"، أما مضيفة "عبد القادر" فلم ينطفئ نورها وواصل الصيادون والسواحل البحث عن "عادل" في المياه الضحلة، على أمل أن يفلحوا في العثور عليه، لكن خاب ظنهم وعادوا بخفي حنين..

(١٧)

"سليم" كان على موعد مع وكيل النيابة الذي استقبله استقبال الفاتحين، وأخذ يستدرجه بعد ذلك تباعًا، فجعل سليم يقدم له الشكر على حفاوة الاستقبال، فداهمه وكيل النيابة باتهامه بهتك عرض "ريم"، تخشب وجه "سليم" للحظات، قبل أن يتمالك نفسه ويتناول رشفة ماء، واستمر التحقيق معه لمدة قاربت الساعتين، خرج على إثر ذلك من المحكمة بكفالة مالية، هرع "سليم" ليخبر صديقه "ناصر" بما حدث معه، استقل سيارته كالمجنون فكاد الموت أن يفتك به، وفور وصوله توجه إلى قصر "ناصر" الذي راح يعنفه على أفعاله التي لا ترتقي لشخصية كبيرة لها ثقلها في المدينة.. جلس لا يحرك ساكنًا كطفل يستمع لنصائح أبيه، وبعد دقائق تذكر أن وكيل النيابة ابن لأحد القضاة الذين تولوا قضية الصياد "عزت السماك"، وتم الحكم فيها عليه بخمسة عشر عامًا، الأمر الذي أشعل نار الغضب في وجه "ناصر" من جديد، خاصة أن السماك من أكبر رجاله في الإسكندرية، وكان يعول عليه كثيرا في نشاطه.. سكت قليلًا ثم أمره أن يلتزم الهدوء خلال الأيام القادمة، وأن يحاول بشتى الطرق أن يجد منفذًا مع

رجال الطب الشرعي، حتى يخلص نفسه من هذه المصيبة قبل الانتخابات المقبلة والتي يعول عليها كثيرًا..

***

احتست "داليا" قدح القهوة وهي تتأمل أرجاء الغرفة والمكتب الفخم، فاستهل "ناصر" حديثه عن تطوير العمليات بينهما، ثم قدم إليها "شيك" بمبلغ مالي أكثر مما تم الاتفاق عليه فيالعملية الأخيرة مع الراحل "أحمد ناصف"، شهيد الطمع على حد قوله..

"ناصر" أخذ يسرد لها مع إضافة بعض البهارات علاقة "أحمد" بالمنظمة في الأيام الأخيرة، مؤكدًا أن الطمع ألقى به إلى مثواه الأخير. عادت "داليا" تستفهم عن كيفية التطوير الذي يتحدث عنه "ناصر" فأجابها أنه لن يتعامل بمبدأ الجزء من الأن فصاعدًا، بل سيتعامل بمبدأ الكل، وكأنها تسمع ألغازًا لم تتضح لها حتى قام بتقديم الشرح..

- أقصد أن نقوم بشراء الجثة كاملة كمومياء الفراعنة..

رفعت حاجبها بعد أن وضعت ساقا على أخرى، وأنصتت باهتمام أكثر لحديث "ناصر" الذي راح يسرد فكرته الشيطانية، التي من خلالها لن يستطيع المريض الفقير أن يرفض مادام علاجه متوفر مقابل تقديم بعض التضحيات..

هنا داعبته قائلة:

-والفقراء سيدخلون الجنة..

فأجابها وهو يشعل سيجاره:

-لنا جنة الدنيا إلى أن نلتقي في جنة الآخرة.

فابتسمت قائلة:

-لا يهم جنة الدنيا أم جنة الآخرة، الأهم أن يعيش المرء حياته كما يشاء.

أخذت تتحدث عن أصول العقودالتي أتت بها من خزينة "أحمد"، فتلقاها "ناصر" وبدوره وضعها في خزينة المكتب، وجاء بأخرى تثبت امتلاكها للمستشفى بالكامل بعقود بيع لها. ابتسمت بعد أن اطمأن قلبها وتيقنت أن مستقبلها في أمان، وراحت بخيالها بعيدًا نحو حلمها أن تكون صاحبة أكبر مركز طبي في الشرق الأوسط وأفريقيا، بادلها "ناصر" الابتسامة وهما يتناولان نخب الاتفاق.

داليا تلك الفتاة الجميلة ذات الأصول الكريمة، والتي كانت تستحي أن ترفع صوتها، وكان كثيرٌ من أصدقائها في كلية الطب يحسدونها على أخلاقها العالية، تحول قلبها الملائكي إلى شيطان رجيم، لا يعرف الرحمة ببني جنسه، كل ذلك بفعل تعرضها لصدمة عاطفية بعد أن تركها خطيبها؛

من أجل من هي أكثر منها مالًا وأعز نفرًا، فتحولت شخصيتها الحالمة إلى شخصية متوحشة، تفتك بأي إنسان مقابل المال والذهب..

***

صلصل جرس هاتف منزل "سليم".. رفع السماعة وهو يتأوه بعد استيقاظه من النوم، فوجد "ناصر" يصيح أن المحكمة قد حكمت بالأمس لأشقائه "حسان وربيع"، فجلس على الكرسي وهو يحاول أن يستفيق من أثر الصدمة، أمسك بكوب الماء ليبتلع حديث "ناصر" الذي أصابه في مقتل، فتمالك نفسه قائلًا:

- سنقوم بتعطيل إجراءات المحكمة، حتى نتدبر جميع شئوننا.

- حسنا، تدبر الأمر جيدًا حتى أقوم بتصفية كل شيء وأرحل من هنا بسرعة..

(١٨)

حرارة الشمس لم تمنع الصيادين من ممارسة عملهم في البحر..

- حمدا لله على سلامتك يا معلم "جلاوي".

- سلمك الله يا معلم "حسين".

- مرزوقة بفضل الله..

- نعم، الحمد لله على كل حال، لقد منَّ الله علينا بخير وفير.

"عرفة"، الشهير بـ"جلاوي"، ذو وجه بشوش لا تفارقه الابتسامة مطلقًا، من شدة عشقه للبحر أبى أن يرحل عنه، على الرغم من مروره بالضيق حين قل خيره، ورفض أن يهاجر إلى "العراق" مع أخيه بحثًا عن مصدر رزق آخر.

جلس "جلاوي" على الشاطئ ينظف الشباك مما علق بها من أعشاب وخلافه، في انتظار لقدوم ابنه "مختار"، ومرت ساعة وكادت الثانية أن تكتمل دقائقها دون حضوره، فقام بجمع الشباك ووضعها في المركب من جديد، ثم حمل ما رزقه الله به من أسماك فوق ظهره وذهب إلى السوق، حيث محل المعلم "رُحيم"؛ أقدم محال السوق..

***

خلف مكتب صغير داخل غرفة زجاجية، جلس "رُحيم" وفي طرف يده عصا النارجيلة، ضجيج السوق والباعة ارتفع للغاية، لذا أمر بغلق الباب جيدًا كي يختلي بنفسه، اكتظ المحل برجاله الذين كانوا في شغل عن رد التحية على "جلاوي" الذي وصل للتو، فسلم إلى أحدهم ثلاثة طرود مليئة بالأسماك ليقوم بوزنها، ثم طرق الباب الزجاجي وتقدم نحو "رُحيم" بابتسامته المعهودة، ألقى عليه التحية كجندي في الجيش يقدم التحية لقائده، هذا الأمر يحبه "رُحيم" كثيرًا وأصبح معهودًا عنده، فسأله عن عدد الطرود التي قام بتسليمها فكانت الإجابة ثلاثة طرود، وضع عصا النارجيلة جانبًا وأخرج السجل الخاص بالمالية من خزانته العامرة بالنقود، تتبع خانة "جلاوي" ثم قام بغلق الدفتر مجددًا ورفع طرف عينيه قائلًا:

- مقدار ما تم توريده من أول الشهر إلى الآن لم يتعدَّ السبعين طردًا، قمت أنت في السابق وطلبت سلفة بلغت ثلاثمائة جنيًا.. صحيح.

رد "جلاوي" بصوت ضعيف قائلًا:

- لله الأمر.

- إذن، تبقى لك مائة جنيه لا غير..

***

في أثناء عودته إلى المنزل، أخذ يسأل عن ابنه في محال السوق، لكنه لم يعثر عليه، سمعه أحد عمال "رُحيم"، فأخذ يهرول خلفه حتى استوقفه قائلًا له:

- ماذا فعل ابنك "مختار"؟ هل استطاع احضار ما تبقى من المبلغ؟

تعجب "جلاوي"من حديث الرجل مستنكرًا ما يقول.. فعاد الرجل يقول:

- ألم يخبرك أن المركب ستبحر يوم الجمعة القادم تجاه إيطاليا؟

في تلك اللحظة، ابيضَّ وجهه كالموتى، وتراجع إلى الخلف نحو حائط وركن إليه، أراد أن يتحدث بشيء ما، لكنه سرعان ما تلعثم وترك الرجل وغادر إلى بيته حزينًا، حتى وجد ابنه يجلس في مضيفة المنزل، ألقى عليه السلام وبادره بالسؤال الذي لم يفارق ذهنه طيلة الطريق.

- هل ستهاجر حقًّا يا ولدي؟

اعتدل مختار في جلسته وتخشب وجهه وما لبث أن قال:

- كنت سأخبرك.

- عن أي شيء تخبرني؟ فهل لنا بعد الوطن وطن يا ولدي؟

مط الابن شفتيه، ثم وقف في مكانه قبل أن يتحرك ناحية النافذة المطلة على البحر، استنشق الهواء القادم من البحر وملأ رئتيه به، وعاد

يطلب من "جلاوي" أن يتركه يرحل حتى يحقق أحلامه التي لن يحققها في أرض الكرام، لم يقتنع الأب بحديث ابنه، وراح يسأله مجددًا عن سبب الهجرة معددًا له مساوئ الغربة على الإنسان، صار يذكره بما حدث لعمه "مرجان" بعد أن أخذته حمى الغربة. سكت "مختار" قليلًا وعاد يؤكد أن ما فعله عمه "مرجان" كان نعم الصواب..

- سأرسل لكما أنت وأمي ما تحتاجون إليه من مال، لكني لن أعود ثانية إلى قرية الكرام مهما حدث، فقد عزمت الرحيل، وتبقى لي مبلغ مال لا أدري كيف أتحصل عليه.

بتلك الكلمات أراد يواسي أباه وقلبه المكلوم الذي راح يسأله عن مصدر الأموال التي قام بدفعها سابقًا، في تلك الأثناء، دخلت أمه وهي تحمل "الشاي"، وما لبثت أن ربتت على كتف "جلاوي" قائلة:

- دعه يهاجر ويرسل لنا الأموال كي نهدم هذا البيت ونبني قصرًا مثل "ناصر"..

حديث "جلاوي" لم يحرك ساكنًا لدى ابنه الذي راح يتذكر مشهد تحطم قلبه عند الفنار لحظة أن شاهد "بلطية" بصحبة ابن الأغنياء.

***

خرج إلى الشاطئ مبكرًا لتحضير أدوات الصيد وتجهيز المركب، فشاهد "بلطية" تتخطى الصخور قاصدة الفنار، خوفه الشديد وشخصيته الضعيفة ظلت حائلًا يمنعه من أن يصارحها، كثيرًا ما كان يراها تقف على الشاطئ، وهي تمازح هذا وذاك وتضحك للصياد هذا وتسلم بحرارة على غيره، فكان يغلي من الداخل كإبريق ماء على اللهب، فترك ما في يده من شباك وأخذ يتبعها، ومن إن وصل وجد سيارة "أسامة" تقف بالقرب من الفنار، فعاود متابعة السير، وتخطى الصخور، وفتح باب الفنار ببطء حتى لا يحدث صوتا مرتفعًا، صوت عراكهما كان مرتفعًا، فاستغل الفرصة للتخفي تحت السُلم حتى ينصت لحديثهما..

"بالطبع كان سليم بصحبتك لقضاء إحدى نزواته القبيحة".

أنصت لكل كلمة بعد أن ترددت بين جدران الفنار، هبط "أسامة" بمفرده، فانزلقت قدماه على آخر درجة للسُلم، فاختبأ "مختار" أكثر، وما إن رحل "أسامة" حتى صعد إلى أعلى الفنار يتفقد المكان، فوجد آثار دماء على الجدران، ومنديل رأسها الأزرق ملقى أسفل المقعد الخشبي، والنافذة مفتوحة على مصرعيها، فنظر من خلالها فلم يجد غير أمواج البحر المتصارعة، فجلس على المقعد، ثم أمسك المنديل بأطراف يده وهو يفكر مليًّا بعد أن أصابته الرجفة والخوف، تأكد أن أسامة قد ألقى بها من أعلى

الفنار، فوضع المنديل على وجهه فاشتم رائحة عطرها الذي كانت تداوم على وضعه، وغفلت عيناه للحظة قبل أن يهرول مسرعًا.

***

مرت ساعات النهار ولم يفلح "جلاوي" في إثناء ابنه عن الرحيل، فارتضى بالأمر الواقع، وذهب معه إلى إحدى الحانات التي أنشئت حديثًا داخل عقار قديم، حيث سمسار الهجرة غير الشرعية يجلس على طاولة في المؤخرة.. تقدم "جلاوي" وهو يتابع الحضور ما بين سكير وعربيد، حتى انتهى إلى شاب يدعى "سامح كابوريا"، نحيف الجسد، أصلع الرأس، يرتدي ملابس صياد، على الطاولة أمامه زجاجة من الخمر، وفي يده كأس صغيرة.

- مساء الخير..

لم يجب عليه وواصل تناول السوداني المملح، ثم رفع الكأس وأسند ظهره إلى حائط خلفه، فأراد "مختار" أن يتحدث، لكن سرعان ما لازم الصمت حين تحدث "جلاوي" أنه سيكتب إيصال أمانة بما تبقى من المبلغ، رد الرجل مخمور العقل أن ابنه لن يهاجر مع أصدقائه، ووسط شد وجذب لأطراف الحديث لم يستطع اقناعه، فأمسك "جلاوي" يد ابنه وهم بالرحيل، وعند خروجهما لحق الرجل بهما قائلًا:

- الأمر ليس بيدي؛ سأتحدث مع الباشا وهو صاحب القرار الأول والأخير..

غمرت السعادة قلب الفتى وهز رأسه قائلًا:

- حسنًا..

عاد الرجل بعد حديث في الهاتف بالموافقة، الأمر الذي أسعد الفتى كثيرًا، وراح "جلاوي" يحرر إيصالًا بالمبلغ..

(المحطة الأخيرة)

في السابعة والنصف صباحًا، دق جرس شقة "سليم" الذي كان يستعد للنزول من مسكنه، فخرج بدون أن يرتدي سترة بذلته، تقدم من غرفته عبر الطرقة نحو الباب الذي كاد ينخلع، فور أن فتح الباب تسمر في مكانه، ثم ضع يده على مسدسه، وعلى غير العادة لم يجده، فتراجع للخلف خطوة خطوة، وهو يستغيث أن يمهله حتى يكتب له شيكا بمبلغ مالي ضخم كي يؤمن مستقبله، لكن دون جدوى، فوجد نفسه ملقى على ظهره مقيدًا من يده وفوق فمه قطعة من اللاصق، فحمله فوق ظهره بعد أن وجه له لكمة بقبضة يده فأغشي عليه..

***

لم يحتمل أسامة الانتظار كثيرًا بعد أن قام بالاتصال بـ"سليم" مرارًا وتكرارًا دون فائدة؛ فاستقل سيارته ومر بمكتبه فأخبره حارس العقار أنه لم يحضر بعد، فعاد ثانية وواصل السير ناحية شقته، باب الشقة وجده مغلقًا إلا قليلًا، بدأ يترجل خطوة خطوة فوجد أثاث المنزل قد تحطم بعض منه، فأسرع للداخل يبحث عنه فلم يجد سوى رسالة بخط يد "سليم" مضمونها..

"لا تبحثوا عني، فقد يئست من الحياة وقررت الانتحار"

أسرع إلى أسفل العقار يسأل حارسه الذي لم يستيقظ بعد، فلم يأخذ منه ردًّا شافيًا، في تلك الأثناء، وصل شاب ذو بشرة خمرية في العقد الثاني من العمر، فاقترب يسأل عن "سليم" المحامي، فأجابه "أسامة" أنه ترك رسالة مضمونها أنه سوف يتخلص من نفسه، والشرطة في الطريق إلى هنا..

مر الوقت وتوقفت حركة المرور، واكتظ الشارع بالمارة بعد وصول سيارات الشرطة الذين راحوا يسألون جميع سكان العقار عن "سليم"، فكانت إجابتهم أنهم لم يشاهدوه منذ الأمس. على الجانب الآخر، وقف "عمار القصاص" بصحبة "ريم" يتابعون الأمر من بعيد.. جميعهم يسألون عن الأسباب التي تجعل رجلا له اسمه في المدينة يترك مثل هذه الرسالة ويقدم على الانتحار.. الأمر كان مريبًا لهم جميعًا.. لاحظ "عمار" أن رجال الشرطة يقومون باستجواب كل من يقف بالقرب من المكان، فأمسك بيد ابنة عمه وسار بعيدًا ناحية القلعة، حتى صعد الطابق الأعلى منها، جلسا فوق السور وكل منهما يفكر في مصير "سليم"..

"هل حقًّا ما يُقال بأنه ترك رسالة تفيد انتحاره.. ليته تمهل لبضع دقائق حتى أصعد إليه وأقتله بنفسي". حديث "ريم" لم يختلف كثيرًا عن حديث ابن عمها "عمار" الذي راح يقول لنفسه:

"إلى الجحيم أيها الأفاق الأشر.. آه لو أمهلك القدر دقائق"

شعرت "ريم" براحة في قلبها بعد أشهر من العذاب..

***

فتح "أسامة" باب سيارته وجلس على المقعد، وأدار المفتاح وانطلق ناحية القصر، دخل سريعًا ناحية المكتب يلهث وهو يستغيث بوالده وأخبره بأمر "سليم"، فلم يستطع أن يتحمل الصدمة وسقط السيجار من يده، جلس على الكرسي واضعا يده فوق رأسه، فعقله لا يصدق ما يحدث..

مرت لحظات من الصمت بعدها أمره "ناصر" أن يستعد على الفور لإخلاء القصر معللًا حديثه أن اختفاء "سليم" غير طبيعي، لأنه يعرف شخصيته جيدًا، تلك الشخصية التي تعشق الحياة وتتمسك بها إلى آخر نفس، لذلك أصابه الشك أن هناك شيء ما يحدث غير معلوم.. قطع حديثهم صوت "نعمان" الجنايني الذي بدا عليه الفزع، دخل مهرولًا إلى المكتب، ثم سقط تحت قدم "ناصر" قائلا:

- القصر مراقب من قبل الشرطة.

لم يتحرك "ناصر" من مكانه، وبدا وكأنه يعرف ذلك مسبقا..

- كيف عرفت ذلك؟

التزم الرجل الصمت ونظر أسفل قدميه، فعاد "أسامة" ليسأله مرة أخرى، فأجاب قائلًا: - "حُرية" زوجتي..

هز "ناصر" رأسه قائلًا: - أعرف ذلك..

في تلك اللحظة، أمره أن يأتي بها فور عودتها، ثم أمسك "ناصر" يد ابنه وهبطا سويًّا إلى المخزن في عجل شديد، وهو يطلب منه القيام بعمل اتصالاته مع رجاله في جميع الأماكن ليخبرهم بتغيير موعد العملية مع أخذ الحيطة..

***

هبط "نعمان" بالمصعد إلى المخزن، وهو يكبل يد زوجته التي أخذت تصيح وتستغيث، قبل أن ينهي زوجها حياتها.. ربت ناصر على كتف "نعمان" وشد أزره مقدمًا إليه واجب العزاء قائلًا:

- البقاء لله يا خير الرجال..

- فلتصحبها اللعنة أينما حلت.

وضع "ناصر" يده في جيب سرواله، وأفسح قدميه قائلًا:

-حسنا.. لقد تخلصنا من مصدر الخطر بعد أن عرفنا بمخطط الشرطة..

***

عاد "عمار وريم" إلى ميت شبر، فاستقبلهما والدها بسعادة غامرة، حَمَدَ الله على عودتهما سالمين، أخبره "عمار" بما شاهده في الإسكندرية وحقيقة موقف سليم، حينها نطق الحاج "سمير" بعد شهور من الصمت قائلًا:

- الحمد لله..

احتضنت "ريم" والدها، وقبَّلت يده العاجزة وسط فرح من جميع المحيطين..

***

أصدر "ناصر" أمرًا بإخلاء القصر مع إعطاء الحرس إجازة مفتوحة، وما إن اطمئن على كل شيء، قام بتدمير جميع الأوراق، وهبط إليهما في المخزن الأرضي، فكشف "ناصر" عن السرداب الذي لا يعرف مكانه أحد غيره. أزال مجموعة من الصناديق الخشبية، وبعد عشر دقائق كانوا قد خرجوا بالفعل من البيت المهجور، واتفق "ناصر" معهم على أن يلتقوا به عند الجزيرة في منتصف الليل، توجه "أسامة" إلى سنترال المندرة، وفور دخوله أخذ يبحث عن "بحراوي" عامل الصيانة، تعرف عليه من قبعة كان يرتديها، وبعد أن قام بعمل الاتصالات اللازمة من داخل إحدى

الغرف الخاصة، خرج سريعًا وجلس إلى عجلة القيادة، وتوجه ناحية المقابر، وصل بالفعل وقام بترك سيارته بالخارج، وأخذ يكمل السير مشيًا على الأقدام، حتى لا يلفت إليه الأنظار وتوجه صوب قبر "بلطية"..

***

صياد كان عاشق بلطية

تضحك تقوله يا عنيا

أنت أغلى من الذهب

أنت عندي بالحياة

صياد كان عاشق بلطية

حين سمع أسامة تلك الكلمات عرف أن صاحبها هو "أكلاشيه" المجنون، واصل السير حت اقترب من مصدر الصوت فوجده يجلس محاذاة لقبرين، سمعه يقول:

-جزاء الخيانة الموت.. لقد أختار كل منكما الخيانة من قبل، فأنت يا أستاذ "سليم" الذي وثقت فيك ذات يوم وجئت بزوجتي لتعمل في منزلك، قمت بخيانتي معها على فراشك.. وهي الأخرى قامت بخيانتي أكثر من مرة نظير بعض المال.. لذلك كان الموت هو السبيل"

ظل "أسامة" يسترق السمع ويتلصص النظر، حتى قرر أن يخرج إليه، فراح يضحك بصوت مرتفع وهو يهرول معلنًا عن قتله لـ"سليم عبدالرحمن".

***

- لقد اختار له القدر أبشع موتة على يد معتوه..

واصل السير ناحية قبر "بلطية"، ذلك الحب الذي لم يستطع أن يتخلص من أذنابه حتى بعد أن قتلها بيده، في الليالي الماضية قامت بزيارته، فقرر أن يردها. توقف أمام قبرها فوجد قطعة من الجرانيت مكتوب عليها.. "هنا ترقد على رجاء القيامة.. المرحومة.. مريم رمزي"

احتضن قبرها وبكى في حسرة وندم، لقد عشقها حد العشق، كانت أقرب إلى قلبه من أي إنسان، رؤيته لها وهي تنزل من بيت "سليم" كان دافعًا له للتخلص منها، جن عليه الليل وراح في سبات عميق، فإذ بها تخرج من بين المقابر والدماء تسيل من رأسها، انتبه لصوتها الذي لم يفارق وجدانه، أخذ يلتفت فلم يجد شيئا، وبعد لحظات سمع الصوت مرة أخرى، فأصابه الخوف وقشعريرة هزت أرجاء جسده، تصبب عرقًا فالتصق أكثر بالجدار، وهمَّ ليقف فلم يستطع، فعاود الكرة وهو يصيح بصوت مرتفع، صوته يدور في حيز مغلق عاد إليه مرة أخرى، طلب منها العفو السماح،

علل قتلها بأنه كان تحت تأثير وسوسة الشيطان، لم يزل يحبها ويعشقها، ثم عاد يطلب منها العفو والسماح، فأخذت تقترب منه أكثر، واستطاع أن يقف على قدميه وفر هاربا ناحية الجزيرة.

***

في أثناء سيره ناحية الجزيرة والخوف والهلع يمتلكانه، ألقى طرف بصره فشاهد عادل ومريم يسيران جنبًا إلى جنب. "هذه الليلة لن تمر مرور الكرام.. يبدو أن أشباح الموتى موعد خروجها الليلة" ظل يحدث نفسه حتى توقف بالقرب منهما، وهما ينظران إليه في خيفة، حتى أن "عادل" أخذ يواري حبيبته خلفه، هبط "أسامة" متوجسًا يحذر العاقبة..

- لا تخف يا ابن العم؛ فما زلنا أحياء..

تصنع "أسامة" الخوف، وارتدى ثيابه وهو يردد آخر الكلمات.. "أحياء.. أحياء"

- نعم، وتلك الجثة التي عثروا عليها لم تكن لـ"مريم"..

تحدثت "مريم" بعد طول انتظار قائلةً:

- سنعود يومًا ما.. يوم أن ينزع أهل الكرام الحقد من قلوبهم، يوم يعلم أبي وجميع أهل الكرام أن الحب هو السبيل في هذه الحياة..

هز "أسامة" رأسه وعلامات السعادة على وجه قائلًا:

- اذهبا ولا تعودا ثانية.. اهربا بالحب من قرية النفاق والكراهية، علموا أولادكم الحب وازرعوا في قلوبهم نبتة الخير، واجعلوا العدل شعارا يطبق في حياتهم، واجعلوا الأخلاق رسالة، ولتكن ابتسامتهم عادة.. ارحل يا ابن العم وليطمئن قلبك.

احتضن أبناء العم وهما يبكيان، ثم صافح "أسامة" يد "مريم" وهو يحملها رسالة وعهدًا أن تجعل التسامح أسلوبًا لحياتهما القادمة..

***

لم يستطع "جلاوي" تحمل فراق ابنه الذي أخذ يعُد العدة للرحيل.. يعلم جيدا أن كثيرًا من الشباب قد لقى حتفه في عرض البحر سابقًا، وقليلٌ منهم من وصل إلى الشاطئ الثاني، دفعه الخوف للخروج من بيته والدموع في عينيه متجهًا صوب مركز الشرطة، أدلى دلوه وأفصح عن كل شيء.. ضابط المركز قام بعمل اتصالاته لإرسال التعزيزات للقبض على الجناة، تركه "جلاوي" وراح يحرض أهل الكرام على الخروج نحو الجزيرة، حثهم على وقف تلك الجريمة التي لن تعود عليهم إلا بالخراب، شد وجذب كثير حدث بينهم، على إثره خرج الأهالي حاملين المشاعل فوق رءوسهم، وكلهم أمل في إنقاذ أبنائهم..

***

اكتمل عدد الحضور بوجود "ناصر" الذي لم يطمئن بعد لدخول الشحنة، فلم يرجع إليه "نعمان" الجنايني، ظن للحظة أنه سقط في أيدي الشرطة، "أسامة" لازمه الصمت واتخذ من أحد الأركان مجلسًا، فرمقه "ناصر" فأخذ يتخطى الرقاب حتى وصل إليه فوجده في حالة يرثى لها.. احتضنه، وكانت هذه المرة الثانية في حياة الفتى التي يحتضنه فيها أبيه، الأولى لحظة ميلاده، حينها وكأن الكون كله يبتسم له، لقد انتظر كثيرًا حتى رزقه الله بالولد الذي ظل يتمناه دائمًا. أن يحتضنك أي شخص.. صديق، حبيب، أخ ، أخت، زوجة، زوج.. كل هذا لا يعد شيئا؛ فحضن الأب يختلف كثيرًا، هو الجبل الذي يحميك من عبث الحياة..

***

أبحرت المركب تجاه الشاطئ الآخر.. "مختار" اختار مقدمة المركب مقعدًا له، صارع وجهه ريح الليل البارد، ألقى طرف بصره في الظلام، وكله أمل أن يصل إلى شاطئ الحلم.. لقد أعد بينه وبين نفسه عدة أهداف في مقدمتها أن يصبح غنيًّا مثل "ناصر"، الذي لو نظر خلفه لشاهده وهو يقبع في مؤخرة المركب. في أثناء عبور المركب أمام الفنار، تذكر "بلطية"، حبه الأول، راح ينظر للفنار والدمع ينساب، ضوء خافت جعله يشاهد

منديل رأسها بين صخرتين، تمنى للحظة أن تتوقف المركب كي يعود حتى يرى القاتل ويقتله، شهق وعيناه مليئتان بالدمع..

***

لم يستطع ناصر تحمل نظرة الخوف في عين ابنه، والتي لا يعلم لها سببًا، وما إن هم أن يتحدث إليه حتى عاد أدراجه ثانيةً، أخبره أحد رجاله أن شرطة السواحل على مقربة منهم، فترك ابنه يصارع هواه وذهب مسرعًا يتابع المشهد من خلال نظارة ميدانية، ثم أصدر أمرًا لجميع رجاله أن يتخذوا من أسلحتهم درعًا يحتموا بها، وأطلق "ناصر" شرارة البدء، فوجد وابلًا من الرصاص صوبه، فأمرهم بمواصلة إطلاق النار.. حالة من الخوف سيطرت عليهم جميعًا، أصاب "أسامة" الخوف أكثر، وارتعد أكثر مع طلقات الرصاص التي أخذت تحصد الرءوس، حتى أصابت رأس "مختار".. شاهد الدماء تسيل من وجه "مختار"، فاقترب منه وتحسسها بيده، ثم اتكأ على جانب المركب، وقرر أن يلقي بنفسه فيالماء مثل غيره، "ناصر" كان يدافع بكل ما أوتي من ذخيرة حتى سمع صوتا يستجير به، فأخفض رأسه لينظر خلفه، رفع حاجبيه وهو ينظر ويحدق بعينيه، ود لو أن عقارب الساعة قد توقفت قبل دقائق وهو يحتضن ابنه، عاش حياته في رغد وسعادة كل لحظة، لكن القدر لم يسعده هذه المرة:

-لا تخف يا ولدي، لن تموت أبدًا أعدك بذلك، فجبال الذهب تنظر وصولك إلى الشاطئ الآخر.. نعيم الدنيا في انتظارنا، لن تموت أعدك بذلك يا ولدي..

ابتسم أسامة قائلًا:

- قرار الحياة، هو القرار الوحيد الذي نظن أننا نملكه، لقد امتلكنا كل شيء في الحياة، بل الحياة بأسرها: مال، وقصر، وذهب وشركات هنا وفي الصعيد، وخزائن في البنوك، الدنيا صارت تحت أقدامنا، وتناسينا أن الله هو الذي يعطي ويمنع، لقد انتهى كل شيء يا أبي، سأغادر حتى تلتقي أرواحنا المعذبة، وحين ألتقي بجدي سأطلب منه العفو والسماح..

***

هبط "ناصر" وهو يحمل بين يديه خطيئته فيالحياة، الدمع ينساب من عينيه كنهر لا آخر له، من كان يسعى من أجله في الحياة، وجمع له المال والذهب رحل في لحظة، جلس على عقبيه محتضنًا ابنه، جميعهم ينظرون إليه في أسف، فهرع إليه "ربيع وحسان" والحزن يكسوا وجهيهما.

- هذا جزاء صنيعك يا أخي! انظر إلى ابنك فلذة كبدك، وترحم عليه قبل أن يواريه الثرى فأنت من قتلته بمالك الحرام..

رفع ناصر طرف عينيه بثقل طالبًا الصفح والعفو من إخوته، اعترف أمامهما أنه قام بسرقة الميراث الخاص بهما، بعد أن أغواه الشيطان عن الطريق، وكان نتيجة ذلك أن ما جمعه من مال ذهب مع الريح بموت ابنه.. لم يستطع "ربيع" أن يقول شيئا سوى أن احتضنه وحمل ابن أخيه فوق يده وهو يقبله بين جبينه وسط دهشة من الحضور..

***

"وسطعت شمس العدل على أرض الكرام من جديد"..

تلك الكلمات كانت آخر ما كتبه الصحافي في مذكراته، قبل أن تتدهور حالته الصحية ويصيبه مرض الزهايمر، فقمنا بإيداعه في مركز صحي، ومازال قدامى ورواد المقهى يذهبون لزيارته حتى اليوم.

النادل: إبراهيم عبدالمتجلي

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.